

مبادئ وأشخاص

بقلم
أحمد بهاء الدين

كتب للجميع

العدد ١٠٢

مايو ١٩٥٦

١٠ م

مباديء وأشخاص

بقلم
أحمد بهاء الدين

تصدر عن
دار الجمهورية

هــذا المؤلف



أحمـــد بهـاء الدين

- رئيس تحرير مجلة « صباح الخير » .
- ولد فى ١١ فبراير سنة ١٩٢٧ ، فعمره الآن ٢٩ سنة وبضعة شهور
- تخرج من كلية الحقوق سنة ١٩٤٦ وكان عمره أقل من السن اللازمة للاشتغال بالمحاماة فالتحق باحدى الوظائف القانونية فى الحكومة .
- جمع بين الوظيفـــة والـكتابة فى الصحف زمنـــا ، ثم استقال ليتفرغ للصحافة .
- ألف كتب « النقطة الرابعـة » « و « فاروق ملـكا » و « أيام لها تاريخ » و « شهر فى روسيا » ... وترجم عن نهرو كتاب « الثورات الـكبرى » .
- غير متزوج .

مقدمة

طلبت الى سلسلة « كتب للجميع » أن أختار مجموعة قيمة من الكتب التى اعتدت ان اقرأها وأن احدث القارىء عنها ، لكى يضمها كتاب واحد..

وجلست أقلب الكتب الكثيرة التى قرأتها وحدثت القارىء عنها فى السنوات القليلة الماضية ...

وقد لاحظت ، وأنا أقلب هذه الكتب ، أشياء غريبة ...

لاحظت — مثلا — أن ذوقى فى أختيار الكتب قد تغير كثيرا ...

كنت فيما مضى أجد شغفا كبيرا فى قراءة وتقديم أبطال التاريخ الغابرين ، اللامعين ، بدا فى تقديمى كتبا عن تاليران ، اوسميراميس ، أو مدام بومبادور ! ..فأصبحت أكثر شغفا بدراسة أبطال التاريخ المعاصرين ، الذين أثروا ويؤثرون فى عالمنا الراهن مثلا ، فأصبحت أقدم كتبا عن نهرو وماك ارثر وماوتسى تونج وبيفان واينشتين ...

وكنت فيما مضى أقدم للناس الفكرة من خلال الرجل ... فأصبحت أقدم الرجل من خلال الفكرة .. وأصبحت أهتم بدراسة الظروف الاجتماعية والاقتصادية أكثرمماأهتم بدراسة نفسية الأشخاص ومشاعرهم وتصرفاتهم ... ذلك ان الظروف الاجتماعية والاقتصادية هى التى تصنع الأشخاص ، وتحدد لهم مشاعرهم وأفكارهم وتصرفاتهم .

ولاحظت أيضا أننى أصبحت لا أقرأ القصص الا قليلا ... وحتى هذه القصص القليلة ، لا أقرؤها الا اذا كانت تحمل فى ثناياها أفكاراً سياسية أو اجتماعية ... فهى دراسة للواقع الاجتماعى والسياسى أيضا ، ولكن من زاوية أخرى وبأسلوب آخر ...

وأحترت طويلا ·· أى هذه الكتب كلها أختار ؟ ··

وفضلت فى النهاية أن أختار مجموعة تمثل هـــذه المراحل المختلفة والاهتمامات المتغيرة ، المتطورة ···

وقد وجدت أيضا اننى كتبت كثيرا عن افلام السينما ·· وسألت نفسى هل أعتبر هذه الافلام من قبيل الكتب أم لا ؟ ···

اننا نشاهد اليوم فى السينما أفلاما لا تقل قيمة عن الـكتب الممتازة من حيث تحليلهـــا للمشاعر ، والأفكار على السواء ، ومن حيث عرضـــها للمشاكل وتقديم الحلول ·

والفيلم السينمائى اليوم أبعد أثرا من الكتاب فجمهور الفيلم السينمائى أكبر ، وهو بطبيعته أكثر تأثيرا لأنه لايخاطب العقل وحده ، ولـكنه يخاطب العقل والبصر والسمع والحواس جميعا ·· ولأنه لايشرح الأفكار فحسب ولكنه يجسمها ويجسدها ويلبسها الثياب ويصبغها بالألوان ! ··

ثم ان الفيلم السينمائى أولى بالتسجيل والتعليق ··· فالـكتاب موجود ومحفوظ يقتنيه القارىء فى بيته ويستطيع ان يعيد قراءته ومناقشـــــته فى أى وقت يشاء ، أما الفيلم السينمائى ، فان المتفرج يراه مرة ثم يمضى فالكتابة عن الفيلم السينمائى تثبته فى ذهن القارىء ، وتعطيه فرصـــة مراجعته ومناقشته كالـكتاب سواء بسواء ··

وبعد ···

فاننى أرجو أن يجد القارىء ، أن هذه الـكتب ، وان تباينت ، فانهـا تلتقى آخر الأمر فى مصب واحد !

« أحمد بهاء الدين »

التعايش السلمى

لم أجد كلمة أخف ظلا من كلمة « التعايش » تعبر عن المعنى المقصـــود منها ! ! .. .

و « التعــايش » بين الدول شيء أكثر من مجرد قبول المعيشة بدون حرب فى عالم واحد ..

وهو مع ذلك شيء لايصل الى مرتبة « التعاون » ! ..

والمشكلة التى تثيرها فكرة التعايش ، جديدة نسبيا فى تاريخ البشر .

فالعالم الآن يضم اكثر من نظام اجتماعى ، والنظامان اللدودان فيـــه هما : الرأسمالية والشيوعية . فهل يمكن أن يعيش هذان النظامان جنبا الى جنب ؟ .. هل يمكن أن « يتعايشا » ، فلا يكون بينهمــا تناحر ، ولا حرب ساخنة أو باردة ؟ أم ان الصدام بينهما أمر محتوم لامفر منه ، مهما تأجل وقوعه ؟ ..

ان نهرو يقول : لقد تصارعت الأديان زمنا طــــويلا . وكان كل من الاسلام والمسيحية يظن أنه اما ان يقضى على الآخر واما ان يمـــوت . ثم انتهت الخلافات ، وعاش الاثنان جنبا الى جنب فى سلام !! ..

ولعل هذا التشبيه الذى يســوقه نهرو غير دقيق تمــاما ، فان الخلاف بين الأديان هو آخر الأمر خلاف على تفسير الآخرة . أما الخلاف بين المذاهب الاجتماعية فهو خلاف على الدنيا ، خلاف على المصالح ! ..

ولكن .. هل معنى ذلك أن « التعايش » بين المذاهب الاجتماعية المختلفة مستحيل ؟

لقد ظهر هذا السؤال لأول مرة سنة ١٩١٨ ، بعد أن نجحت الثـــورة البلشفية فى روسيا ..

وكان الظن عنـــدما نشبت هذه الثورة أنها لن تدوم ، فكتبت جريدة («الديلي تلجراف ») الانجليزية فى يناير ١٩١٨ تقول : « ان هذا النظام لن يعيش أكثر من شهر واحد » ··· وأرسلت أربع عشرة دولة ، على رأسها انجلترا وألمانيا والنمسا وتركيا واليابان جيوشها لغزو روسيا ونســف نظامها الجديد ، وعلى عكس ماحدث للثورة الفرنسية ، التى أخمدتها جيوش الملكيات الأوربية وأعادت عرش الملك الى باريس ، لم تستطع جيوش أوروبا أن تخمد الثورة فى روسيا ·· وانتهت الحرب باستمرار النظام الجديد ··

وتساءل الناس فى الجانبين :

هل يعيش النظامان جنبا الى جنب ، أم أنهما يستعدان لجولة جديدة ؟··

هل تقبل الدول الرأسمالية وجود دولة تلغى الملـكية الخاصة تماما ، وتدعو « صعاليك العالم » جميعا الى الثورة ؟··

وفى الناحية الأخرى :

هل ترضى الدولة الشيوعية الجديدة بما بلغت ، أم أنها سوف تواصل الثورة على نطاق عالمى ضد الدول الرأسمالية ؟ ···

وظهر المتطرفون كالعادة فى الجانبين ·

ظهر فى الدول الرأسمالية رجال مثل تشرشل يدعون الى الاستعداد لغزو روسيا مرة أخرى ·

وظهر فى روسيا من يقولون ان الثورة الشيوعية لا تستهدف ايجـــاد وطن شيوعى فحسب، بل ايجاد عالم شيوعى ·· فلابد من مواصلة الثورة، فورا ، ضد سائر البلاد ··

وكان معنى هذه الآراء ان تستمر العلاقات مقطـوعة بين الجانبين ، وأن يتهيأ كل منهما لمعركة قريبة حاسمة ·

ولـكن فكرة التعايش لم تلبث أن ظهرت ، وانتصرت ، فى كلا المعسكرين على السواء ٠

فكيف كان ذلك ؟

كيف أمكن لهذين النظامين اللذين كانا يستعدان لصراع الموت أن يتفقا على الحيـاة ؟ ٠٠

يروى لنا هذه القصة الكاتب الانجليزى اندرو رونستين فى كتابه عن التعايش السلمى ٠٠٠

ونذهب أولا الى موسكو ٠٠٠

لقد وقف لينين يعارض رأى المتطرفين ، ودعاة مواصلة الثورة العالمية ٠٠ أنه يقول « ليس من مهمة روسيا السوفيتية أن تغير العالم بمفردها ، ان عليها فقط أن تقيم اشتراكية ناجحة فى بيتها ٠ وأن تثبت أن اقامة هذا المجتمع أمر ممكن ، وأنه أكثر ملاءمة للفرد العادى من النظام الرأسمالى » ٠

ومضى لينـــين يبشر بلا انقطاع للتعايش السلمى ، وللصداقة مع الدول الرأسمالية ٠٠ وذهب فى هذا الى حدود بعيدة ٠٠

ففى خطبـــة سياسية عامة قال : « ان التعايش السلمى ليس مجرد عمل سياسى ولكنه ضرورة تاريخية ٠٠ ولا بد لنا من العمـل لتحقيق مزيد من التفاهم بين دول النظامين » ٠٠

وفى مؤتمر للجنة الحزب الشيوعى بموسكو ، ألقى خطبة سرية ، لم تنشر الا بعد عشر سنوات قال فيها : انه يريد تشجيع الرأسماليين الأجانب على استثمار موارد الثروة الطبيعية التى لم تمس فى روســـيا ! ! « انهم بذلك سوف يكسبون كثـــيرا ، ولـكنهم ســـوف يساعدون الاتحاد السوفييتى على أن يقف على قدمية بعد التدمير الرهيب الذى أصابه فى السنوات الست الأخيرة » ، وقال ان هذا التعاون سوف يساعد على اعادة بنـــاء الاقتصاد

العالمى كله ، لأن موارد روسيا الطبيعية تزود الاقتصاد العالمى بجانب كبير من حاجياته •• ثم استطرد قائلا: ان هذا التعاون سوف يفيد العمال ،وكل « الرأسماليين المعقولين » •• فى جميع انحاء العالم ••

وفى خطبة أخرى له قال مخاطبا العالم الخارجى : « ان فى العالم اليوم ملايين من الناس يموتون جوعا ! •• وان لدينا ملايين شاسعة من الأرض الصالحة للزراعة ، ولديكم الجرارات ، والبترول •• اننا ندعو الناس فى كل مكان الى التعاون لانتاج طعام يكفى الجميع •

وكلام لينين هنا هام ، لأنه لايعنى مجرد امكان وجود دولة شيوعيـــة مع دول رأسمالية فحسب ، بل لأنه يعنى أمكان قيام علاقات وثيقةوصداقة وطيدة بينهما ••

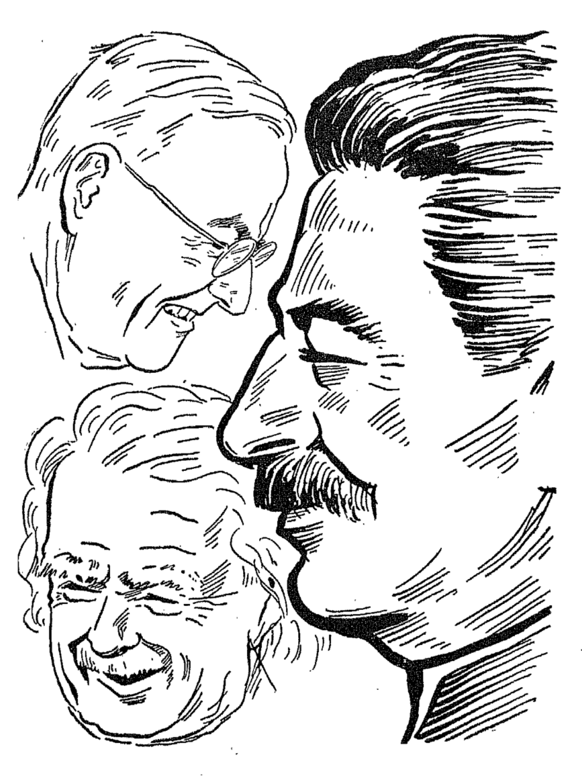
وسأل الناس لينين : هل تكفى رغبة روسيا فى التعايش السلمى لكى يتحقق ؟ ••• هل تقبل الدول الرأسماليه هذا التعايش السلمى ؟ ••

وكان الرد موجودا فى مؤلف قديم للينين ، كتبه قبل الثورة ، وقبل ان يصبح حاكما :

ان الدول الرأسمالية متفاوتة من حيث القوة ودرجة التقـــــدم ، وهى مختلفة فيما بينها تتنافس على احتكار الأسواق وعلى تصدير رؤوس أموالها فالدول الأقوى لا ترى بأسا من دخول حرب تزيد من قوتها ، بعـــــكس الدول الأقل قوة التى سوف تخسر حتما من قيام أى حرب ••

وبناء على ذلك ، فان سياسة روسيا الدبلوماسية يجب ان تهـــدف الى كسب صداقة الدول التى لاتريد الحرب ، واحراج الدول التى قد تـــكون الحرب فى مصلحتها ، بحيث يستعصى عليها ان تقدم على أية مغامرة من هذا النـــوع •

يضاف الى ذلك أن الحروب الحديثة ــ وويلاتها لا تقف عنــــد الجيوش المحاربة ، بل تمتد الى كل المواطنين ــ قـــد أدخلت فى السياسة الدوليـــة



ستالين - دالاس - لويد جورج

عاملا هاما هو : الرأى العام الداخلى فى كل بلد ، فأصبح الناس أكثر نفوذا من الحرب ، وأصبح من المفيد تحريض الرأى العام على مقاومة كل دعوة الى الحـــرب ٠

وعلى هذين الخطين تسير سياسة روسيا الدبلوماسية الى الآن !!

ونذهب بعد ذلك الى عاصمة العالم الرأسمالى ــ وكانت لندن فى ذلك الوقت ــ لنرى ماذا كان من أمر هذه الفـكرة ٠

والسخط الاجتماعى الذى يعم العالمالغربى ، ويتبدى فىشكل اضرابات واضطرابات واعتصامات ، لايمكن أن تخمده حرب توجه ضد دولة تقـول دعايتها أنها تقدم حلا لهذا السخط الاجتماعى بالذات ٠ بل ان هذهالحرب سوف تبدو للرأى العام استفزازا وعدوانا لامثيل له ٠٠ وقد تدفـــــع الساخطين الى الثورة السافرة ، على حكوماتهم

ثم ان عدم الاعتراف بروسيا ٠٠ ومقاطعتها اقتصاديا ، انما يزيد الحالة الاقتصادية سوءا فى العالم كله ! ٠٠

وقد كان الانجليز ، الواقعيون ، أول من أدرك هذه الحقائق ٠٠

ووقف لويد جورج رئيس وزراء انجلترا ، يقول كلاما يكاد ينطبق على ما يقوله لينين فى موسكو !!٠٠ فقد قال فى خطبة العرش التى ألقيت سنة ١٩٢٠ : « ان السلام والرخاء لن يسود أوروبا باقرار السلام مع روسيا مادامت تلكالبلاد الشاسعةتقوم بدور هام فى تزويد العالمبسلع الاستهلاك ان أوروبا فى حاجة الى موارد روسيا ، وان انسحاب روسيا من الأسواق قد أدى الى رفع الأسعار ،وندرة المواد ، وانتشار الجوع » !! ٠٠

فهو يدعو اذا الى فكرة « التعايش السلمى » مع النظام الاجتماعى الآخر

وقد التقت الرغبتان فى صورة مباحثات تجارية بين انجلترا وروسيا ، انتهت باقامة علاقات تجارية مع روسيا قبل ان تعترف انجلترا بها سياسيا

ثم سافرت بعثة من حزب العمال الى روسيا ، وعادت تدعو الى الاعتراف السياسى بها •• وتحقق هذا الاعتراف سنة ١٩٢٩ ••

نفس القصة التى تدور بين انجلترا والصين اليوم ! •• وبأصغر التفاصيل فيها !••

وفى سنة ١٩٣٥ ، طار ايدن الى موسكو ، وتباحث لعقد معاهدة تحالف مع روسيا للوقوف فى وجه الخطر النازى واشتراك النظامان فى حرب عالمية ثانية ضد النازية الفاشية فى ألمانيا وايطاليا واليابان !

وقد انتهت الحرب العالمية الثانية لتنشب الحرب الباردة •• وتكرر الصدام بين المعسكرين الرأسمالى والشيوعى فى أكثر من مكان •• وألقيت القنابل الذرية — للتجربة ! — فى فيافى سيبيريا وفى صحراء نيومكسيكو على السواء •• وعاش الناس يتراهنون على نشوب الحرب : هل يكون هذه السنة أو يتأخر الى السنة المقبلة ! ••

وتركز التوتر هذه المرة على الصين فوجد فى المعسكر الغربى من يدعو حتى الآن الى عدم الاعتراف بها ، ومن يفكرون فى اعادة غزوها •• وفى احدى فترات التحرج منح الكونجرس الامريكى الرئيس ايزنهاور سلطة الأمر باستخدام الاسلحة الذرية دون الرجوع الى الكونجرس أو الى حلفاء أمريكا •• وخطب دلاس فى مارس الماضى فدعا الى القيام بعمل مشترك ولو كان فيه « مخاطرة جدية » •• وأعلن شواين لاى ان الصين مصممة على تحرير فورموزا مهما كان الثمن ••

وفى خلال هذه السنوات من القلق والتوتر والسحاب المتراكم ، كانت دعوة « التعايش السلمى » قد عادت ترفع رأسها وتعرض امكانياتها لكى تنقذ الموقف •

وتعود الى موسكو ولندن •• والى عاصمة جديدة كبيرة •• هى دلهى ••

فى موسكو .. قال ستالين للصحفى الأمريـــــكى روى هاوز « نحن الماركسيين نؤمن بأن الثورة سوف تقع فى أماكن أخرى من العالم . وليس معنى ذلك ان من خطتناتصدير الثورة الى الاماكن الأخرى.فتصدير الثورة مستحيل . وهى لن تقع فى أى مكان الا اذا جعلت الظروف وقوعهـــا أمرا ضروريا وممــكنا . ان كلا شعب يثور اذا رأى ذلك ، وان لم ير ذلك فلن تكون هناك ثورة ! ! » ..

فهو يردد ما قاله لينين منذ ثلاثين سنة ، ليس من مهمة روسيا أن تغير العالم ، وكل شعب يجب ان يصنع مصيره

وفى لندن ، كرر الانجليز نفس الدور الذى لعبوه سنة ١٩٢٠ ..

تزعم تشرشل الدعوة الى مباحثات بين الاربعة الكبار .

وطغت الاعتبارات الاقتصادية ، ودعت الى ضرورة اقرار مبدأ التعايش السلمى بين المعسكرين ، وبين النظامين الاجتماعيين ،فجاء فى مجلةالاحصاء الشهرى لهيئة الأمم المتحدة ان تعثر التجارة بين الجانبين يسيىء الى انعاش الاقتصاد الدولى والى مستوى الحياة بوجه عام ..

واقامت انجلترا علاقات تجارية واسعة مع الصين ، وسافر وفد من حزب العمال الى هناك وعاد يطالب بالاعتراف بها سياسيا ..

ووجدت كلمة « التعايش السلمى » سبيلها لأول مرة الى المعــــاهدات الرسمية فنص عليها فى الاتفاق الذى عقد بين الصين والهند فى أبريل سنة ١٩٥٤ .

وقام نهرو بدور هائل فى اقناع العالم الغربى بفكرة التعايش ، ونبذ سياسة التكتلات ، ثم سافر الى موسكو وقال انه ينوى اقناع روسيا بحل

الكومنفورم ، حتى لاتبقى شبهة محاولة منها للتدخل فى شئون البـــلاد الأخـــرى

وشهدت باندونج أكبر مظاهرة سياسية ، قام بها أكبر عدد من الشعوب المختلفة المذاهب ، التى وجدت من مصلحتها أن تقاوم الحـــرب •• ودعا المؤتمر فى قراراته الى مبدأ التعايش السلمى ••

وتحت هذا الضغط العالمى والرغبات الحارة فى الحيلولة دون وقـــوع حرب ثالثة ، تقرر أن يجتمع الأربعة الكبار فى شهر يوليو المقبل ••لوضع أسس صالحة للتعايش السلمى ••

وبعـــــد ••

فماذا نفيده نحن ـ الذين لسنا كبارا بعد !! ـ من التعايش السلمى ؟ !

ان التعايش السلمى لا يحل مشاكل العالم كلها ، ومشاكل الشـعوب الصغيرة بالذات ! ••

انه فقط يمنع وقوع حرب عالمية كبرى • وهو كسب هائل ، لأن الحرب العالمية تحمل الى الشعوب الصغيرة قبل غيرها سنوات من الدمار والضغط والتأخر •• ولأن السلام كلما امتد بنا ، زادت امامنا فرص البناء والتطور والتجارة والاثراء ، بحيث نصبح ـ كالآخرين ـ كبارا ! ••

التعايش السلمى اذا يريح العالم من معركة مفجعة كبيرة ••وان بقيت لنا بعد ذلك معاركنا الصغيرة ! ! ••

ان كل شعب صغير لهمعركته الخاصة به ، والتى يعطيهالتعايش السلمى فرصة لكسبها ..

معركة لكى يتحرر ..

ومعركة لكى يبنى .. ولكى يختار . ولكى يصبح طرفا مستقلا ، أصيلا ، فى التعايش السلمى ..



السلام والعلم والحرية

من فينا لا يجلس أحيانا ، و « يسرح » بأفكاره ·· يتأمل هذا الكون الغريب المضطرب ، ويضع الخطط لتنظيمه ؟ ··

هكذا يفعل « الدوس هكسلى » كثيرا وهو كاتب انجليزى الجنسية ،عالمى التفكير ، يعيش منذ أمد بعيد فى أمريكا ، وفى كاليفورنيا بالذات ،محدقا فى أمواج المحيط الهادى ، متأملا مصائب البشر ، قلقا من أجلهم ··

والكتاب الذى أعرضه عليك اليوم هو احدى « سرحاته » ·· لكى يضع للعالم نظاما يعفيه من الاستبداد ·· والفقر ·· والحرب ، وكل ماتأرق له الجفون وتهلع القلوب !

وقد قلت لك مرة قبل ذلك ان الدوس هكسلى كاتب متشائم · فهو ثاقب العقل ولكنه ضعيف الروح · يتأمل الكون فيرى سحب التشاؤم القاتمة ، وينسى أن وراء هذه السحب سماء التفاؤل الزرقاء الصافية ·· ومع ذلك فان تشاؤمه من النوع اللماح ، المفيد ، الذى يضع ايدينا على حقائق خطيرة ··

وقد دفع « هكسلى » الى تأليف هذا الكتاب الذى أقدمه له ·· كلمة خطيرة قالها تولستوى منذ أكثر من نصف قرن هى : « **اذا كان النظام الاجتماعى ظالما ، والقوة فى يد عدد قليل من الناس يستغلون الآخرين ويستبدون بهم ·· فان كل تقدم علمى لن تكون له نتيجة الا تعزيز هذا الاستغلال والاستبداد !** »

فالقسم الاول من هذا الكتاب ، يحاول فيه « هكسلى » أن يثبت صحة هذه الكلمة ·· ان يثبت أن كل تقدم يحرزه العالم هو ضد الحرية والرخاء والسلام !

والحجج التى يسوقها « هكسلى » ـ وان كنت سأخالفها بعد قليــل ـ وجيهه جدا ·· بل وأخاذة أيضا !

فقد زود العلم ـ فى الأجيال الثلاثة الماضية ـ الحكام السياسيين بأدوات هائلة للضغط لم تتيسر لأى حاكم من قبل ·· يكفى ان نذكر منها القنابل الذرية والدبابات وقاذفات القنابل وقاذفات اللهب ·· لنعلم ان أية ثــورة شعبية ضد الطغيان أو الاستعمار تكاد تكون شيئا مســـتحيلا ! ويضرب « هكسلى » مثلا بالثورات الشعبية التى اكتسحت أوربا سنة ١٨٤٨ : لقد كان يكفى المواطنين أن يتحصنوا وراء العربات المقلوبة ويتسلحوا بالخيل والبنادق القديمة لكى يقاوموا ويثبتوا ·· اذ لم تكن الجيوش تملك أكثر من ذلك سلاحا ·· أما الآن ، فأى شعب يصمد بالخيل والبنـــادق أمام الدبابات والمدفعية الثقيلة والطائرات ؟ ! ··

وأضيف الى ذلك مثلا معاصرا : فان « ماو ماو » مثلا كانت تستطيع بغير شك أن تطرد الانجليز من كينيا لو كان العالم لا يعـــرف غير البنـــادق سلاحا ·· ولكن انجلترا تملك فوق البنادق الدبابات وقاذفات القنابل ·· فماذا تفعل ماو ماو ؟·

ويستنتج « هكسلى » من ذلك : ان تقدم العلم كان اذا ضد الحرية !·· فالحرية السياسية والشخصيةقديما كانتتستندالى حدبعيدالىضعف وسائل السلطة الحاكمة ·· فالكثرة ولو كانت عزلاء كانت تستطيع أن تهزم القلة ذات السلاح البسيط ·· كما قهر أهل باريس حرس لويس الســادس عشر ·· أما الآن وبعد أن كرس حضرات العلماء والمهندسين والرياضيين علمهم لاختراع الاسلحة ، فاذا حرمت الكثرة فى أى مكان من وسائل التعبير الديموقراطية ، كالخطابة والكتابة والاجتماع ، أصبح مستحيلا عليها أن تملى ارادتها ، أو تتخلص من الطغيان أيا كان ! ··

ثم يسأل هكسلى نفسه : أتيــأس الشعوب اذا ؟·· أتنصرف تمــاما عن محاولاتها المتصلة الدامية للتخلص من الاستبداد والاستعمار ؟·

كلا ! .. فقد توصل رجل عظيم الى اختراع هائل يستطيع ان يجابه هذه الاختراعات الحربية .. ذلك الرجل هو : غاندى .. وذلك الاختراع هو : المقاومة السلبية والعصيان المدنى ! ..

نعم .. لقد كانت المقاومة السلبية اختراعا عظيما ، مر بكل المراحل التى تمر بها الاختراعات العلمية الكبرى . بدأ غاندى بتجربة اختراعه فى جنوب أفريقيا ، حين كان يعصى القوانين بمفرده .. ثم يحرض المئات ثم الآلاف .. فلما اكتملت تجاربه ، ذهب الى الهند ليعلم مئات الملايين هذا الاختراع العجيب .. وليقوده بنجاح هائل ، وبعد زمن قصير ، لم يكن يتوقعه احد ..

فالعصيان المدنى ـ الساتياجراها كما يسميه الهنود ـ لم يكن شيئا ارتجاليا بل أنه عمل علمى دقيق جدا ، كما أن غاندى الذى اخترعه لم يكن رجلا مثاليا فقط بل وسياسيا واقعيا أيضا . وقد ألفت فيه الكتب ونشرت الابحاث والتعليقات ، تماما كأى اكتشاف علمى هام .. وان ظلت أعظم ميزاته أنه برهان عظيم على انتصار الروح على المادة..فهو يحتاج الى صفات عظيمة من الصبر وضبط النفس وقوة الاحتمال ..

ونجاح هذا الاختراع فى الهند امر معروف للجميع : ولكن الذى لايعرفه الكثيرون ان الشعب فى ألمانيا قد استعمله سنة ١٩٢٣ ضد الاحتلال الفرنسى لمنطقة الروهر ! .. واذا كان لم ينجح حينئذ لعدم تعود الشعب عليه ، فان هكسلى يؤكد أن الشعب الالمانى لو قرر اليوم أن يطرد الاحتلال الاجنبى فلن يجد طريقة أنجع من العصيان المدنى ! .. ويقول هكسلى : حينئذ سيبدو غريبا أن يكون البلد الذى أخرج أشهر الشخصيات العدوانية مثل كلازفتز وهتلر ، هو اول بلد أوربى يأخذ بالمقاومة السلبية ! .. وان هذا الشعب الذى يعبد قوة المادة ، يجد خلاصه فى قوة الروح !! ..

ثم يعود هكسلى الى قضيته الاولى ، فيسوق حجة وجيهة أخرى على أن التقدم العلمى كان ضد حرية الانسان : لقد كان المفكرون القدامى يحسبون ان مجرد انتشار التعليم بين الناس كفيل بالقضاء على الطغيان . ولكن

التقدم أثبت عكس ذلك تماما ! فالسلطة السياسية الآن ــ سواء كانت ممثلة في حكومة مستبدة ، أو دولة استعمارية أو طبقة صغيرة تملك الثروة القومية ــ هذه السلطة السياسية اصبحت لا تملك وسائل القهر وحدها ، بل ووسائل الاقناع أيضا ! ! ..

فقديما ، لم تكن هناك صحافة ولا اذاعة .. أما الآن فقد أصبح للصحافة والاذاعة تأثيرهما الهائل على عقول الناس .. لما فيهما من جاذبية واستمرار يرغم الفرد العادى على ادمانهما كما يدمن السجاير مثلا ! .. و « الصحف والاذاعة فى البلاد الحرة خاضعة للمعلنين وفى البلاد غير الحرة خاضعة للحكومة » فهما فى الحالة الاولى تعبران عن مصالح أصحاب القوة الاقتصادية ، وهم الأقلية دائما ، وفى الحالة الثانية تعبران عن رأى الحاكم . و « من يدفع أجر العازف يختار اللحن الذى يعزف ! » ..

ويضرب مثلا طريفا « .. كان صوت مارك انطونى فى روما القديمة لايتجاوز الآلاف المحتشدين فى الميدان ، أما الآن فصوت أى داعية يصل مذاعا ومطبوعا الى شتى انحاء الأرض ! » .

فالفرد مهما فعل لايمكن أن يتخلص من الدعاية التى ترددها اعلانات أصحاب الشركات دائما فى الصحافة والاذاعة والتى تخدم مصالحهم فى البلاد الحرة ، ولايمكن أن يتخلص من تأثير الافكار التى ينشرها الدكتاتور فى الصحف والاذاعة فى البلاد غير الحرة .. ولو كانت ضد معتقدات هذا المواطن ... ذلك ان الامتناع عن قراءة الصحف أو الاستماع الى الاذاعة أمر صعب جدا يعرف صعوبته كل من حاول الامتناع عن التدخين مثلا ! ..

وقد أجرى فى أمريكا استفتاء بين قراء الصحف ثبت منه ان الاغلبية الساحقة تعتقد ان جريدة معينة هى أكذب الجرائد ، وانها على ذلك أوسع الجرائد انتشارا .. فقد أصبح فى « جاذبية » الصحيفة أحيانا ما يغنى عن مبدئها !!

وهكذا أدى تقدم العلم ، الى فقدان الفرد لاستقلاله العقلى ! ..



آلدوس هکسلی ... غانـــدی

وكما فقد الفرد حريته السياسية نتيجة للتقدم العلمي فى صنع الاسلحة وفقد استقلاله العقلى نتيجة للتقدم العلمى فى وسائل الدعاية ٠٠ كذلك أدى التقدم العلمى الى تركز الصناعة ، مما أدى الى فقدان الفرد حريتـــه الاخيرة : حريته الاقتصادية ! ٠٠

لقد أدى التقدم العلمى الى ظهور الآلات الكبيرة والصناعات الثقيــلة ٠ ولم يكن ممكنا أن يظل الانتاج فى الدكاكين الصغيرة بعد هذا التطور ،بل أصبح انتاجا مركزا تمتلكه أيد قليلة ٠٠ وقضى هذا الانتاج المركز على طبقة الصناع اليدويين والتجار الصغار ٠٠حتى فى أبسط الاشـــياء ٠٠ ففى أمريكا مثلا لا تجد دكاكين البقالة التى نعرفها فى مصر مملوكة لصـــغار التجار ٠٠ بل هى فروع تابعة لشركات ضخمة ، والذين يعملون فيهامجرد أجراء ٠٠

فالاغلبية الساحقة من البشر الآن يعملون فى مصانع يمتلكها غيرهم ٠ فهم غير مستقلين ، بل هميعتمدون فى رزقهم على أصحاب المصانع ،مهددون بالاستغناء عنهم فى أى وقت ٠٠ فالحرية الاقتصادية بالنسـبة لهم الآن مجرد ذكرى قديمة ، أو شىء لايعرفونه قط !

كذلك فان هذا التركز الانتاجى ، والنظام الرأسمالى الذى جعل القوة الاقتصاد فى أيدى قلة من الافراد ٠٠ أدى الى تفاقم ذلك الداء القديم ٠٠ الحـــرب ! ٠٠

ويفسر « هكسلى » ذلك بقوله : ان الرأسماليين القابضين على ناصـــية الانتاج يقصدون بانتاجهم الربح لا اشباع حاجات المستهلكين ٠ والربـــح يدفعهم الى البحث عن مزيد من الاسواق خارج بلادهم ، والتنافس عـــلى أسواق التوزيع بين الدول يجر الى الحرب ٠٠

ومن أجل الحصول على هذه الارباح ، نشر النظام الرأســـمالى نوعا من الثقافة والدعاية صورت للناس ان الوطنية تقتضى الاعتداء على أوطـــان الآخرين !٠٠ حتى تجد حجة تسوغ بها للناس دفعهم الى أتون الحرب ٠

وهذه هي الوطنية العدوانية التي بثها هتلر فى ألمانيا •• والتي تؤمن بها كل دول الاستعمار الأخرى ، وتصور لأبنائها أن الوطنية هي استغلال سائر الاوطان •• وهذا النوع من الوطنية العدوانية يســوق بدوره الى الحرب •• واغراء السلاح لأصحاب هــذه الوطنية كأغراء الخمر والنساء للمراهقين •• قوى ، مدمر ! •

ويبدى هكسلى أسفه البالغ ، لأن العلماء أيضا تأثروا بهذه العقليــة واعتنقوا هذا النوع من « الوطنية » فأصبحوا يتســابقون في اختراع الاسلحة القادرة على تدمير الجيران وسائر الشعوب •• خصوصا وان هــذا النوع من الوطنية يدر عليهم ارباحا هائلة •• فالاسلحة هي السلعة الوحيدة التي لاتكسد أبدا ، مهما ارتفعت اسعارها ! ••

ولما كان مستحيلا على الاقليات صاحبة القــوة الاقتصادية أو القــوة السياسية ، أن تبقى العالم فى حالة حرب دائمة من أجل رواج ســوقها ودوام سطوتها ، فقد خلقت فى فترات السلم حالة أخرى هي : الاستعداد للحــرب ! ••

وحالة « الاستعداد للحرب » أو « خطر الحرب » لها فوائد كثيرة من وجهة نظر أصحاب القوة الاقتصادية أو السياسية ، محلية أو اســتعمارية •• « فحين يسوء الموقف فى الداخل ، ويصبح السخط العام شيئا لايمــكن تجاهله أو اهماله ، فانه من الممكن دائما ــ فى عالم يعتبر الاستعداد للحرب واجبا مقدسا ــ ان تحول انظار الناس عن مشاكلهم الداخلية الى مســألة عسكرية خارجية •• فتطلق الحكومة حملة من دعايتها الاســتعمارية عن طريق اجهزة الاقناع التي تملكها ، تطالب بانتهاج « سياسة حازمة » ضــد عدو خارجي ما •• وتدعو الى « ضم الصفوف » ــ أي الطاعة المطلقة للاقلية المسيطرة ــ وهنا يصبح خائنا كل صوت يرتفع بأى شــكوى أو نقد ، من فساد أو اضطهاد ، مهما كانت الشكوى عادلة !! » •

وأقرب مثل لذلك ما حدث فى العالم سنة ١٩٣٠ ، لقد أصابت العالم فى تلك السنة أزمة اقتصادية توقفت لها المصانع ، وهبط الانتاج ،وتعطل

الملايين من العمال ٠٠ (وتلك كمايقول هكسلي الحلقة التي تلاحقعالما يتقدم دون أن يخرج من سيطرة القليلين) ٠٠ واتخذت انجلترا وأمريكا وغيرهما من الدول اجراءات مختلفة قللت عــدد العمال المتعطلين ، وخففت من حدة الأزمة دون أن تقضى عليها نهائيا ٠٠ وفجأة ظهر هتلر ليشفى العالم من وباء هذه الازمة ! ٠٠ لقد اتجه الى التسلح ، وأعلن عن نواياه العدوانية ٠٠ وشعر العالم بالخطر على نفسه فاقتدى به فى التسلح ٠٠ وبقـــدرة قادر اختفت البطالة نهائيا ٠ وعادت المصانع تعمل أكثر من ذى قبــــل ! ٠٠ واستمر العالم يتعاطى دواء هتلر العجيب حتى وصل الى النتيجة الحتمية له وهى الحرب ٠ ودفع العالم ثمنا رهيبا لشفائه الوقتى ، وخرجت الدول من الحرب أسوأ حال مما كانت ، قبل أن تتعاطى هذا الدواء !! » ٠

فخطر الحرب حل ازمة الانتاج فى ظل النظام الرأسمالى قبل الحــــرب العالمية الثانية ! ٠٠ واضيف الى ماقاله هكسلي أن القلة التى تتحكم فى الانتاج فطنت الى هذه الحقيقة ، فلم يكد يمضى على انتهاء هذه الحرب زمن قليل حتى خلقت ـ وبسرعة ـ حالة جديدة من خطر الحرب ٠٠ لتواجـــه الازمة قبل أن تقع ٠٠ بل لقد احتفظوا بعدة حروب صغيرة متفرقة ٠٠ فى كوريا والهند الصينية وغيرهما ، يستعينون بها على احتمال مصائب السلام التى تنزل بانتاجهم ، وبأرباحهم ! ٠٠

وعلى ضوء هذه الحقائق نستطيع نحن المصريين ـ بل نحن الشرقيين ـ ان ندرك لماذا يهددنا الغرب دائما بخطر الحرب ٠٠ انه فى ظل خطرالحرب تجد انجلترا حجة لبقائها فى مصر ، وتجد أمريكا حجة لشرائها القواعد فى المغرب ، وتجد الدولتان التبرير لكل ما ترتكبانه فى البلاد المستضعفة من استغلال واستبداد ! ٠٠

الى هنا ٠٠ تنتهى الادلة التى ساقها هكسلي ليثبت بها ان التقدم العلمى ضد حرية الانسان ، واستقلاله الفكرى والاقتصادى ، وأمنه الاجتماعى ٠٠ هو ضد حريته ٠٠ لأنه زود الحكومة فى البلاد الدكتاتورية ـ كما زود الأقلية صاحبة القوة الاقتصادية فى البلاد الديمقراطية ـ بالسلاح الذى

يخمد أي ثورة شعبية ، واجهزة الدعاية التي تملي أية دعـوة مرســـومة ، والانتاج المركز الذي يجعل الاغلبية أجيرة ..

عـــلى أن هكسلى قد أشار ـ وبدقة ـ الى بعض جوانب الموقف ، وجهـل جوانب هامة أخرى ! فجاءت الصورة التي رسمها لعالم اليوم ناقصة الى حد كبـــير ...

فالحقيقة الساطعة التي يؤكدها التاريخ أن هذه الظروف كلها لم تقض على الحرية . ولم توقف تقدمها .

أن الحكومات الديمقراطية الآن ـ برغم كل هذا التقدم العلمي ـ أكثر منها في أي وقت مضى ..

وان الشعوب الحرة والثورات النـاجحة الآن ـ برغم اختراع القنبلة الذرية ـ تزداد يوما بعد يوم ، بشكل لامحل لانكاره ..

والامثلة لا تعد ولا تحصى ، فان مركز انجلترا الآن في كينيا مثلا رغم مابيدها من سلاح حديث أضعف مائة مرة من مركزها هناك منذ خمســين سنة ، وقبضتها على مصر الآن وهي تملك الطائرات والدبابات أضعف من قبضتها عليها منذ خمسين سنة وهي لا تملك الا الخيالة ومدافع البارود !.

وليس هذا كلاما حماسيا ولكنه حقيقة راسخة . وكل ذى عينين يستطيع أن يلاحظ أن القيود تتكسر الآن في كل يوم وفي كل مكان ، كلما انتشر الوعي والتهب .. والوعي هنا هو الثقافة التي تكسب الشعوب الاحساس بالكرامة ، وهو التجربة التي تعلمها مكايد الاستعمار القديمة ، وهو العدوى التي تنقل جراثيم الحرية من قطر الى قطر ، ومن رأس الى رأس .. كمـــا تنقل الريح بذور اللقاح ..

على ان تشاؤم هكسلى لم يصل به الى حد اليأس .. أو لم يقعد به عن التماس الحل .. وقد جرى منطقه على هذا النحو :

ان الداء الاكبر هو فى تركز الانتاج فى أيدى قلة من الناس ، مما أدى الى العواقب التى اسلفناها .. فالعلاج بناء على ذلك هو الاتجاه نحـــو الاشتراكية الاقتصادية .. أى بجعل وسائل الانتاج ملكا للجميع ..

ولكنه يرى فى اجتماع السلطة السياسية والسلطة الاقتصادية فى يد واحدة هى يد الحكومة المركزية ، خطرا كبيرا ، يغرى الحكومات بالطغيان، مؤكدا ان التاريخ لايعرف سلطة مطلقة واحدة لم تفسد صاحبها ، فلا مفر بناء على ذلك من العودة الى الديمقراطية بمعناها القديم، بمعنى حكم الشعب نفسه بنفسه ، بمعنى اللامركزية السياسية ...

ولكنه يشترط لتحقيق اللامركزية السياسية شرطا رئيسيا : هو زوال خطر الحرب ، بل والعدول عنها كوسيلة لفض المنازعات .. ذلك ان الحرب تحتاج دائما الى تركيز السلطة فى جهاز واحد ، والنصر فيها لابد له مـــن السلطة المطلقة فى العمل والانتاج والتوجيه .. فبقاء خطر الحرب معناه بقاء الحكومات المركزية . اما اذا زال الخطر ، فلن يجدالناس بأسا من الاخذ بنظام اللامركزية السياسية ..

أما طريقة القضاء على الحرب .. فانه يلقى أكبر العبء فيها على عاتق العلماء .. فيدعوهم الى الامتناع عن أى عمل أو ابتكار أو انتاج فيه اعتداء على حياة البشر بأية صورة من الصور . ويقول : ان الديانة البوذية تقرر أنه لايعد بوذيا من يكسب رزقه من صنع السموم أو الســـلاح ! .. وما احرانا أن نأخذ بهذا المبدأ البوذى .. فلا نعتبره انسانا شريفا ، العـالم الذى يساهم فى صنع سلاح فتاك يقوى الطغيان ، ويتعدى على حق الحياة، ويسلب الآخرين حرياتهم .

وعلى العلماء بدلا من ذلك أن يتجهوا الى انتاج الطعام : « .. فان مشكلة العالم الاولى هى الطعام . وهو ليس مشكلة بالنسبة للاقليات التى تحكم العالم فى كل مكان .. فهذه الاقليات تحصل على الطعام بغير جهد فلا تحس بأنه مشكلة قط . لذلك نراها تبحث عن شىء آخر كالقـــوة أو النفوذ أو

السيطرة ‥ على عكس الملايين الذين تنحصر مشكلتهم الكبرى دائما ‥
فى الوجبة القادمة ! » ‥

ثم هو لاينسى أثر التجارة فى اشعال الحروب . ويضرب مثلا بالشرق الاوسط : كل دولة من الدول الكبيرة تطمع فى بتروله وخيراته ، وتتطاحن من أجلها فهى تحتل الشرق الاوسط ، وربما اشتبكت فى الحرب من أجله ويقترح بدلا من ذلك أن تكون كل البلاد حرة ، قوية ، مالكة لثروات أرضها ... فيبيع الشرق الاوسط ـ بعد تحريره ـ هذا البترول لجميع المشتركين ،من الشرق والغرب على السواء‥فى تجارة حرة متبادلة ، على قدم المساواة ! ‥

وأظننى أستطيع أن أقول لهكسلى بالنسبة لهذه الفقرة بالذات ، ونيابة عن جميع سكان الشرق الاوسط : موافقون !!



كتابنا القادم



التفسير السياسي للموسيقى

لماذا تستمع الى الموسيقى والغناء ؟ ..

ستقول للمتعة ، ولا بأس بذلك ، فان الموسيقى اذا لم تقدم لنا المتعة لا تكون موسيقى ..

ولكن .. أن المتعة في الموسيقى ليست ضد « المعنى » وفهم الموسيقى لايسلبها المتعة ، بل يضاعفها . وفى الفن بوجه عام يوجد نوعان من المتعة : الاولى متعة الدقيقة العابرة ، والاسترخاء والراحة من مشـــاكل اليوم . والثانية متعة انعاش الذهن والحواس ، وتنبيهها الى آفاق جديدة من الحياة والمشاعر والافكار .. والفرق بين المتعتين هو الفرق بين الفن التافه والفن الرفيع ..

ثم ..

ماذا تصنع بنا الموسيقى ؟ ..

تصور أنك تستمع الى خطبة مثلا .. أن جوهرها ولا شك هو الافكار التى يقولها الخطيب .. ولكنك لن « تنفعل » بهذه الخطبة اذا كان الخطيب يدحرج كلماتها بلا وقفات ، ولا تغيير فى طبقات الصوت ، ولا أى نغم على الاطلاق .. فموسيقى الالقاء تزيد انسانية الخطبة وتضاعف درجة الانفعال بهـا ..

والانفعال الذى ينتاب الواحد منا عندما يستمع الى الموسيقى هو علامة الاحساس بالجمال المركز فى اللحن ، وهو الفرحة التى تصاحب كـل قفزة تقفزها الى معرفة جديدة .

والموسيقى ليست أصواتا جوفاء ٠٠ ولكنها تصوير بالصوت والايقاع لعديد من الصور والعلاقات الانسانية ٠

وما دامت الموسيقى تصويرا للحياة الانسانية ، فاننا لايمـــكن أن نفهمها الا اذا وضعناها فى سياق العصر الذى أنتجها ٠٠ بكل ظروفـه السياسية والاجتماعية

اذا ٠٠ فكما نقرأ تاريخ المجتمع الانسانى فى الســـياسة والادب والاقتصاد فاننا نستطيع أن نقرأه أيضا فى الموسيقى ٠٠ وهذا هـــو ما يقدمه لنا « سيدنى فينكلستين » فى هذا الكتاب ٠٠

والكتاب ـ بناء على هذه الخطة ـ يعتبر جديدا على القارىء المصرى ٠٠ الذى خلقت له الصحف وهما كبيرا ، ظن معه أن الفنان انسان لايلهمه الا وجه جميل ، أو خصر نحيل ٠٠ وان الموسيقيين بالذات لم تكن لديهم مشكلة ٠٠ الا المشكلة الجنسية !! وانهم مشغولون بمطاردة النســاء عن ملاحظة الواقع ، ودراسة المجتمع والكفاح من أجله ٠٠

موســـيقى الاقطـــاع

فى العصور الوسطى كان النظام السائد فى المجتمع هو الاقطاع ٠٠ كان الأباطرة والنبلاء يملكون الأرض ، وكان الفلاحون أرقاء تابعين لهذه الارض ، ومن التجار والصناع اليدويين ـ كالنجارين والحـــــدادين والاسكافيين ـ نشأت المدن ٠ واستطاعت مع الزمن أن تختار حكامها ، وأن تصبح أقرب الى الجمهوريات ، مثل البندقية وفلورنسا فى ايطاليا ٠٠

أما الموسيقى ، فكانت توجد منها أيضا ثلاثة أنواع ٠٠ كانت هناك موسيقى الـكنيسة التى تعزف فى المناسبات الدينية وموسيقى البـلاط التى تعزف فى سهرات القصر ٠٠ وموسيقى الشعب وهى أغانى الحصاد والزفاف والاعياد ٠٠

كانت موسيقى الكنيسة تصور الحياة الاخـرى •• وكانت موسيقى البلاط تهدف الى تزجية الفراغ فحسب ••

اما موسيقى الشعب فقد تقدمت موكب التطور •• امتزجت بالشعر ، واتخذت شكلا كفاحيا ، وانطلقت تتغنى بقصص وأناشـيد يرددها الفلاحون الارقاء وتدور عادة حول شخصية « الخارج على القانون » الذى يسخر من الملك والنبلاء ويحقق العدالة ويساعد الفقراء ، مثل قصـة « روبين هود » فى انجلترا ••

وقد حدث فى سنة ١٤٠٢ ،أنأصدر مجلس العموم البريطانى قانونا يمنع دخول المنشدين مقاطعـة ويلز لأنهم تسببوا فى احـداث شغب هناك !!

أما وراء أسوار المدن القليلة ، فقد حدث شىء هام : هو طبع الالحان الموسيقية مما أتاح فرصة انتشارها ودراستها ، وقد ظهرت أول موسيقى مطبوعة فى البندقية سنة ١٥٠٠ •

واستمر الوضع على هذا النحو دون تغير يذكر حتى القرن السابـع عشر والثامن عشر •• ظل الرق ، والاقطاع وسلطة الكنيسة ••• وكان كل نبيل « يقتنى » فى قصره : طباخا لمطبخه وسائسا لجيـاده ومعلما لأولاده وموسيقارا لحفلاته !•• وربما كان هذا الموسيقار فنانا عبقريا من الذين وضعوا ألحانا خالدة ، ولكن مركزه الاجتمـاعى فى القصر كان لايختلف عن مركز الطباخ والسائس •• ولم يكن عمله هاما : مجردأن يعطى الصغار دروسا فى الموسيقى • وفى الحفلات التى يقيمها النبيل ، يقف فى ركن القاعة يعزف الموسيقى ، بينما المدعوون يأكلونويثرثرون ويضحكون •

وكان معنى ذلك أن القطع الموسيقية يجب أن تكون مما يستطيع أن يعزفه فرد أو فرقة قليلة العدد تلائم الخاصة وأن تكون رشيقة رقيقـة

خافتة حتى لايضيق بها جو الصالون ، وأن تكون خالية من تعقيدالافكار لأن الحاضرين لا يتفرغون لسماعها ، انما هى تطرق آذانهم فحسب بينما هم مشغولون بالحديث أو الطعام ·· أو الغزل !

ثم ظهرت ـ فى فلورنسا والبندقية أيضا ـ الاوبرا ·· وكان من أثر ظهور الاوبرا أن ظهرت الفرقة الموسيقية الكبيرة والآلات المعقدة ، التى تطورت الى الفرقة السيمفونية ··

وبعد الاوبرا ظهر « الكونسرتو » ، وهو لون من الموسيقى التىيعزفها عدد كبير من الآلات ··

وكان ظهور الاوبرا والكونسرتو فى الواقع ثورة على الكنيسة والاقطاع · لقد تحول الموسيقار من عازف « يخدم » فى بيت النبيل الى فنان يعزف فى مكان عام يؤمه عدد كبير من الناس ··

ولم يكن هذا التحول سهلا ·· أخذ « هاندل » فى انجلترا يعزف فى الاماكن العامة و « فيفالدى » فى ايطاليا يلحن الاوبرات وأعظمهم « باخ » فى المانيا يعزف فى الكنيسة فاتحا أبوابها للجميع ·· فوضعوا بذلك أول حجر فى بناء صالة العزف ··

فالموسيقى الجديدة التى يضعها هؤلاء العباقرة لم تعد تلائم تماما صالونات النبلاء ·· الاوبرات مثل « أوبرا الشحاذين » التى اكتسحتفى انجلترا ـ وهى تتحدث عن ثورة عامة الناس علىمظالمالنبلاء ··وموسيقى باخ فى ألمانيا يهاجمها النقاد « لأنهـا معقدة » فيرد عليهم صديق له قائلا « انه لايضع ألحانا لحفلات الشراب وما اليها من المناسبات الانيقة ·· فان عليه ـ كفنان حقيقى ـ أن يحاكى الطبيعة ، وان يساعدها اذا أمكن !

ولم يكن هذا التحرر تاما بالطبع ·· فالموسيقار بعد ذلك يجب أن يعيش ·· والرزق فى يد الكنيسة والنبلاء · وباخ نفسه كان « يخدم » كموسيقار عند دوق فيمار ثم عمل مدرسا للموسيقى فى الكنيسة ·· وكان نظام الاقطاع يقضى عليه بأن لايتنقل من وظيفة الى وظيفة أو من

بلدة الى بلدة الا باذن من الامير • ومما يعطينا فكرة عن جو ذلك العصر ان نقرأ فى قرار تعيينه عند الامير : « عليك ان تكون مخلصا مواليا مطيعا لسعادة الكونت ، وأن تكون مهذبا متعاونا مع الادارة ، وأن لاتزج بنفسك فى غير عملك من الامور ! »

اســـتقلال الفنـــان

ثم جاء « موزار » فدفع الثورة على الاقطاع مرحلة أخرى •• والنقاد يطلقون على موزار اسم (فولتير الموسيقى) لأنه هاجم الموسيقى الاقطاعية بالعنف الذى هاجم به فولتير تفكير الاقطاع •• بل انه اشترك فى عدد من الجمعيات السرية لمناوءة النظام الذى كان سائدا ••

وكانت استقالة موزار من خدمة أسقف سالزبرج ، اعلانا تاريخيا لاستقلال الفنان ! وتأكيدا لصفته كانسان مفكر مبدع وليس مجردخادم للكنيسة والنبلاء •• وكان أسقف سالزبرج صاحب نفوذ واسع ، مما جعل موزار يتعرض لحرمان هائل هو الذى أدى الى موته المبكر ••

وعاش موزار يقاسى العذاب الذى يقاسى منه كل المجاهدين •• كان عليه لكى يرتزق ويعيش ان يجارى الاشكال الموسيقية التى يرضى عنها النبلاء ، وكان عليه لكى يحقق رسالته أن يضع أفكاره وعواطفه الجياشة فى هذه الاشكال القديمة •• ونجحت موسيقاه فى الشوارع أكثر مما نجحت فى الصالونات ! أصبحت الحانه تتردد فى الشوارع والحدائق وحانات البيرة ، حتى أن الشحاذ عازف الجيتار كان لا يأمل فى جمع نقود الا اذا عزف شيئا لموزار •• أما فى الصالونات ، فكان تعليق النقاد « انه لايعطى المستمعين فرصة للراحة •• فما أن تنتهى فكرة جميلة حتى يلحقها بأخرى تنزع الاولى من الرأس فلا يبقى فى النهاية شىء ! » •• فأهل الصالونات لايريدون الموسيقى التى يحتاج سماعها الى مجهود •

كان موزار يضع الحانه المضطرمة فى القوالب التى ترضى مالكى الرزق وكان هذا الثائر مضطرا الى مجاراة النبلاء ، حتى لقد انتحل أحدهم

احدى القطع التى وضعها موزار ، وكان عليه أن يسكت ، مادام قد قبض الثمن ! ..

أما فى الاوبرا ، فقد خطا موزار خطوة كبيرة أخرى .. كانت الاوبرات كلها مطبوعة بطابع الاقطاع ، تدور حول شخصيات من النبلاء فى عالم ثابت غير متغير .. فجاء موزار وأخرج أوبرات كوميدية ، تدور مثـــلا حول انقاذ خادمة من حريم أمير تركى .. وتمتلىء بالكلام عن حرية المرأة واستقلالها .. أو أوبرا « زواج فيجارو » التى جعل الكونت فيها يبدو أحمق خبيثـــا .. ولم يجعـــل الخادم (فيجـــارو) كالعـــادة ، أبله دنيئا بل جعله بطل القصة .. جعله مخلوقا انسانيا عميق الانسانية ، يدافع عن حقه فى الحب والفوز ! وقد تعرضت « زواج فيجارو » بالذات لاضطهاد شديد من رقابة الاقطاع .

ثم جاءت الثورة الفرنسية فهزت العالم وأفسحت الطريق أمام بتهوفن وشوبيرت .

بتهـــــوفن

كان بتهوفن فى التاسعة عشرة من عمره عندما انفجـــــرت الثورة الفرنسية . وقد ولد فى مقاطعة الراين ، أقرب المقاطعات الالمانيـــــة لفرنسا ، من أب كان يعمل عازفا فى القصر نظير أجر تافه وأم كانت أرملة طبـاخ ..

وقضى بتهوفن شبابه متطلعا الى الاحداث التى تدور عبر الراين .. حيث أعلنت مبادىء : الحرية والاخاء والمساواة .. وأعلن ميثـاق حقوق الانسان ، وهزم الفلاحون وهم ينشدون المارسيلييز جيوش الاباطـــرة والنبلاء .. واستولت الطبقة المتوسطة على الحكم .

وعندما ذهب بتهوفن الى عاصمة الموسيقى ، فيينـا ، ســـنة ١٧٨٢ ، ليعيش فيها وجدها تحلم بالديموقراطية الجديدة .. ورأى أحلامها هذه



موزار ـ بيتهوڤن ـ شـــوبان

تتنفس فى صورة شغف هائل بكل فن يومىء الى الحرية الآتيـــة أو الى انهيار النظام القديم .. وكان صعبا على بتهوفن أن يعلن عن ميـــوله الجمهورية فى عاصمة الرجعية ، وأن يؤيد جيوش فرنسا .. ومع ذلك فقد وضع لحن البطولة « ايرويكا » واهداه الى نابليون ! وما كاد ينتهى من اللحن حتى سمع أن نابليون قد الغى الجمهوريةوأعلن نفسه أمبراطورا فمزق اللحن ، وأسفر بذلك عن ميوله الجمهورية ..

ونستطيع أن نقسم موسيقى بتهوفن وحياته الى ثلاث مراحل :

المرحلة الاولى ، عندما كان فقيرا مجهولا يشق طريقه بصعوبة ،ويعيش من اعطاء دروس الموسيقى للاغنياء أو العزف فى حفلات خاصة .. فى هذه المرحلة وضع بتهوفن قطع « السوناتا » الرقيقة الملائمة للعــزف فى الصالونات حيث يستمع اليها الهواة والاغنياء ..

والمرحلة الثانية من سنة ١٨٠٢ الى ١٨١٤ .. وكان قد ذاع صيتـــه ولمع اسمه فى جميع العواصم الاوروبية .. وازدادت قوة الطبقةالمتوسطة وظهر منها جمهور يستطيع أن يعيش الفنان عليه . وأصبح بتهـــوفن يكسب من حفلات مفتوحة للجمهور .. وأصبح يبيع القطع الموسيقية فى السوق الحرة ، طليقا من احتكار النبلاء .

وفى هذه الفترة أنتج بتهوفن أكثر أعماله .. وضع ســـيمفونياته الثمانية ، وأوبرا « فيدليو » وافتتاحياته « أجمنت » و « كوريولانس » .

وكان انتصار « السيمفونية » على هذا النحو الرائع على يد بتهوفن ثورة حقيقية فى الموسيقى .. فالسيمفونية لا تصلح للعزف فى الصـــالون الخاص ، بل لابد لها من قاعة ضخمة تؤمها الجماهير .. ولا بد لمؤلفها من دراية بامكانيات الفرقة الكبيرة والقاعة الواسعة ..

ان الفرق بينها وبينالقطع القديمة الرقيقة كالفرق بين الخطب العــامة فى الجماهير وبين الهمس فى الصالونات !

ودهش الناس من نغمة البطولة السائدة فى سيمفونيات هذا العملاق ودهشوا من اقبال جماهير الطبقة المتوسطة فى المدن عليها اقبـــالا لم يسبق له مثيل ! ودهشوا قبل كل شيء من قوتها الخارقة حتى وصفوها بأنها « وحشية » !

وانهالت عليه الحملات ٠٠ قال عنه النقاد : انه لايتوقف عن معارضة كل القوى السياسية الموجودة ! وان عواطفه جمهورية ! وبـــدعوى أن موسيقاه « تدل على الجهل والابتذال ، وتنطوى على خطر ثقافى » منعـــوا التلاميذ فى المدارس من دراسة موسيقاه ، فكانوا يحفظونها سرا ٠

وكان سر نجاحها أنها تعبر أقوى تعبير عن روح العصر ٠٠ لم تكن رقيقة واهنة تلائم حفلات الرقص فى القصور ٠٠ ولم تكن حزينة أليمة خائرة ، تعبر عن الاسف على انقراض العهد القديم ٠٠ بل كانت قـوية بطولية جارفة ٠٠ مليئة بالمعارضات السريعة العنيفة ، فى جو باهر يؤكد أن التغير ضرورى ومفيد !

أما الفترة الثالثة ـ فكانت من سنة ١٨١٤ حتى وفاته ٠٠ هنا سكت بتهوفن عن انتاج السيمفونيات ١١ سنة كاملة ، ثم أخرج واحدة أخيرة، هى السيمفونية التاسعة ٠٠

ما سبب هذا الصمت الطويل ؟ لقد هزم نابليون ٠٠ وعادت الملكية الى فرنسا ، وتعرضت أوروبا لموجة رهيبة من الرجعية ، وامتـــلأت العواصم ـ وعلى رأسها فيينا ـ بالجاسوسيـــة والارهاب ٠٠ وانصب الاضطهاد على رؤوس الزعماء المتحررين ٠٠ وفى هذا الجو يستحيل القـاء تلك الخطب الموسيقية العامة ، فتحول بتهوفن مرة اخرى الى « السوناتا » ومع ذلك ، فاننا لانجد فيها روح اليأس والتسليم ٠٠ بل تملؤناموسيقاها برغبة المقاومة والعناد الذى هو مفتاح شخصية بتهوفن ، وبالايمان بالحياة وهو نغمته التقليدية ٠

ان مشاعر الحب فى قطعة « ضوء القمر » ليس فيها أثر للحـــزن والاستعطاف وهو صورة الحب القديم ، بل هى مزيج من الحنان والفرح،

والمنغمة البطيئة التى صور بها مشهد القبر فى « روميووجولييت » لايصف فيها قبول الموت ، بل الصراع من أجل الحياة ٠٠ لايضع فيها نواحا ، بل استشهادا بطوليا عظيما ٠

ولما لم تعد الروح الديمقراطية الملتهبة تملأ صالات الموسيقى ،وضع هذه السيمفونية التاسعة ، التى ختمها بنشيد جماعى ٠٠ عن الاخـــوة الانسانية والسلام ٠٠

ولما مات ، سارت فيينا كلها فى جنازته ، وكانت الجنازة ذات مغزى سياسى ، الى جانب المغزى الفنى ٠٠

وفى الموسيقى التى جاءت بعد بتهوفن نرى طابع الاستبدادوالاختناق نرى أوروبا التى يحكمها «مترنيخ »والمحالفة المقدسة التى عقدها بين الاباطرة ورقابة الاقطاع التى عادت الى المسرح والى كل انتـــاج فنى ٠٠ ونرى فى موسيقى « شوبيرت » نفس القلق العميق الذى كاد يســـود أهل فيينا ٠٠ والانهيار العاطفى اليائس يقتحم أعذب الحانه كأنه الذهول المفاجىء !

وفقدت « قاعة الموسيقى » صفتها الثورية ٠٠ وأصبحت مكانا يظهـــر فيه الاغنياء الجدد أنهم ليسوا أقل تحضرا من السادة القدامى ! وأصبحت الموسيقى المطلوبة بناء على ذلك سطحية ، فيها من المظهر أكثر مما فيها من الموضوع ٠٠ فيها الضخامة وارتفاع الصوت والضجة أما الموضوع فتائه غامض ، وأصبح الفنان أقرب الى البهلوان : يقف « باجانينى » عازفالكمان الشهير على المسرح فيقطع ثلاثة أوتار أمام النـــاس ليريهم كيف يستطيع العزف على وتر واحد ! أما قصص الاوبرا فقد عادت تدور حول : العاشق المنتحر ٠٠ وقاطع الطريق !

الموســـيقى والاشتـــــراكية

كان لابد أن تتأثر الموسيقى أيضـــا ، بظهور ، المذاهب الاشتراكية ٠

أما كيف تأثرت ، فالامر بسيط :

ان الحديث عن الفن الواقعى قديم · ولكن هذه الواقعية كانت فى تغير مستمر · والواقعية فى هذا العصر ، تستمد مادتها من حياة الطبقات العاملة من فلاحين وعمال وموظفين وأصحاب الدكاكين الى آخره ··

وكما كانت هذه الفئات محرومة من التعليم مثلا ، ومن القراءة ، كذلك فقد كانت محرومة من الاستمتاع بفن الموسيقى ، المتطور الرفيع ··

كانت هذه الفئات تنتج فنها الموسيقى الخاص بها ، فى صورة الاغانى الشعبية ، والموسيقى الشعبية الخاصة بها · وهذه الموسيقى والالحان الشعبية تكون ثروة ضخمة · ولكنها ظلت كالمادة الخام ، ثروة مهملة ، لم تتناولها يد الفن الموسيقى المتطور بتحسيناته وعلومه وآلاته الفنية ·فقد كانت كل هذه التحسينات حكرا للطبقات القادرة ، تستمتع بها بمفردها فى قاعات الموسيقى الفاخرة ذات الاجر المرتفع ·

ثم أن فنون الموسيقى الرفيعة ، من أوبرا وسيمفونى وغيرها ،أصبحت فى ظل النظام الرأسمالى صناعة كأية صناعة أخرى ، وأصبحت الموسيقى والموسيقيون يخضعون لسلطان شباك التذاكر ·· أى للفئة التى تستطيع أن تقف أمام شباك التذاكر ·· وأصبح عامة الناس يشترون السلع الموسيقية التى تعرض عليهم ، سواء كانت تعبر عنهم ، ومستمدة منهم أم لا ···

ولكننا الآن أمام تطور عالمى كبير ·· الفروق بين الناس تتحطم وتحل محلها المساواة ·· والموسيقى تصبح فى بعض الدول الاشتراكية مرفقا عاما كسائر المرافق الاخرى التى ترعاها الدول كالتعليم والصحة وغيرهما ·ورعاية الدولة للموسيقى كأنها مرفق عام ، معناها أن تقدم الى جميع المواطنين ، مهما كانت قدراتهم ومستوياتهم ··فهى لاتشجع الموسيقى وتقدمها للربح ، ولكن تشجعها ليستمتع بها أكبر عدد ممكن من أفراد الشعب ·

وتحرر الموسيقى من سلطان شباك التذاكر ، وتحررها بالتالى من سلطان فئة معينة ، واتجاهها الى الناس كلهم ·· معناه أنها تجد نفسها محتاجة الى أن تستمد مادتها من حياة الناس كلهم ، من كفاحهم ومن أحلامهم ومشاعرهم ·· كلهم ·

وعلى هذا الاساس ، مضى رواد الموسيقى الذين أدركوا مغزى التطـــور مضوا يضعون آذانهم الحساسة على قلب الشعب ، ويدرسون أغانيـــه وألحانه وأساطيره ٠٠ ويبدون عنها فى أوبراتهم وسيمفونياتهم ٠٠ ولأول مرة بدأت خامات الفن الشعبى تعرف طريقها الى الاساليب الفنيـــة الحديثة ٠٠ لتخرج منها موسيقى تجمع بين سلاسة الاستعمال اليـــومى للانسان العادى ، وبين خصوبة التجربة الانسانية والاجتماعية وعمقها٠٠ موسيقى تحمل رغبة الصراع والتقدم والفرح الصحيح العميق بالحياة !

وقد تحدث شوستاكوفيتش ، صاحب أروع سيمفونيات معـــاصرة ، فى المؤتمر الثقافى العالمى ، الذى عقد فى أمريكا سنة ١٩٤٩ ، تحـدث عن رسالة الموسيقار فى هذا العصر ، فقال :

« ان مهمة الموسيقار المعقدة لمواجهة مطالب الواقعية الحديثة ، تتطلب منه أن يبعد عن الافكار العظيمة والمشاعر العظيمة ، وان تحمل أنغـــامه احساسا عميقا بالتفاؤل ، وتأكيدا قويا للجمال والكبرياء فى البشر ٠٠ ولن يســـتطيع الفنان أن يصنع ذلك فى عالم مضـــطرب ممزق محطم الاعصاب ٠٠ فالسؤال الذى يجب أن يوجهه كل موسيقار الى نفسه اليوم هو : كيف أخدم بفنى ، قضايا السلام ، والديمقراطية والتقدم ؟٠٠ »



فن الكذب السياسي

العلاقات بين الدول : حرب أو سلام ••• فى ساحة الحرب يقاتل الجنود ، وفى ساحة السلم يقاتل الدبلوماسيون •

ونحن نعرف عن الدبلوماسية الآن انها سفارات وموائد مستديرة ومؤتمرات •

وعن الدبلوماسيين أنهم قوم مدللون يمتازون بشتى أنواع الحصانات •• ويقترنون فى اذهاننا عادة باللباقة والرشاقة وثياب السهرة وحفلات الكوكتيل والياقات المنشاة !

ولكن الدبلوماسية لم تكن كذلك على الدوام •

كان الدبلوماسى فى الزمان القديم فدائيا ، اذا ذهب فى مهمة فقد يعود وقد لا يعود !•• كان السفير الأجنبى يعامل على أنه جاسوس ••• وقد يتعرض فى أية لحظة لطعنة خنجر أو لكمين فى الطريق !

كانت التقاليد فى روما القديمة تقضى بأن يبقى السفير الاجنبى عند أبواب المدينة حتى يقرر مجلس الشيوخ قبوله كسفير •• أو معاملته كجاسوس ! ••

وكانت جمهورية البندقية تحتم على من تبعث به سفيرا أن لايأخذ معه زوجته ، حتى لا تثرثر فى البلاد الأجنبية بالأسرار ، وأن يأخذ معه طباخا خاصا حتى لايدس له احد السم فى الطعام ! ••

وفى انجلترا ، على عهد كرومويل سنة ١٦٢٣ ، كان عضو البرلمان اذا « ضبط » وهو يتحدث مع أى سفير أجنبى ، فقد مقعده فى الحال !•

وفى موسكو ، سنة ١٦٢٣ ، كان القياصرة يخصصون قلعة ينزل فيها السفراء الأجانب •• كأسرى حرب !•

وفى اليونان القديمة كانت توجد جريمة اسمها « جريمة الســـــفارة الفاشلة » تشبه الخيانة العظمى ٠٠ السفير الذى يفشل فى المهمة التى أرسل من أجلها يحاكم ويحكم عليه بأحكام مختلفة تصل الى الاعدام !٠٠

ولاشك أن ذلك كله كان مرجعه الى الروح القبلية المتعصبة التى كانت سائدة بين الدول ٠٠ كل دولة تنظر الى الأخرى نظرة احتقار وكراهيـــة وعداء ٠ وفى هذا الجو الرهيب كان على الدبلوماسيين ان يعمـلوا ٠٠ حتى تتغير الظروف ، وتتبدل النظرة ، ويصبح الأصل فى العلاقات بين الشعوب الأخاء والمساواة ٠٠

وكتاب « تطور الأسلوب الدبلوماسى » يعرض علينا قصة هذا التطور فى سلسلة خلابة من النوادر والحكايات والتعليقات

أما مؤلفة ، هارولد نيكولسون ، فهو كاتب صحفى انجليزى ودبلوماسى قـديم ٠٠٠

ويقول نيكولسون : أن الدبلوماسية ترجع الى فجر التاريخ ٠٠ وأن أول مهمة دبلوماسية كانت ولا شك عندما بدأ سكان الغـابات البدائيـون يتفاهمون على أن تكون لكل جماعة منهم منطقة معينة يصطاد فيهـا ويبحث عن الطعام ٠

ولـكن المؤلف لا يشير ولو بكلمة واحدة الى تاريخ الدبلوماسية فى الحضارات الأولى ٠٠ المصرية والصينية وغيرهما ٠٠ بل يذهب مباشرة الى اليونان ، سنة ٨٠٠ فقط قبل الميلاد ٠٠ فينقل عن « هوميروس » قصـة خطف هيلانة من زوجها الملك وأسرها فى طروادة ، وكيف أن « منلاوس » و « أوديسيوس » ذهبافى « سفارة » سلمية الى طروادة يطلبون اعادة هيلانة الى زوجها ٠٠ ودخل السفيران فى القاعة التى يجتمع فيها المجلس النيابى ٠٠ وألقى كل منهما خطبة طويلة ٠٠ ولكن العضو « انتيماخوس » كان قد جمع حوله أغلبية من الأعضاء رفضت تسليم هيلانة ، فقامت الحروب الدامية المعروفة ٠٠

ويستنتج المؤلف من ذلك : ان البعثات الدبلوماسية كانت فى ذلك الوقت تقابل المجالس النيابية لا الحكام • وان أسلوب المباحثات كان علنيا يتم بواسطة القاء خطب عامة •

وفى مكان آخر من ملحمة هوميروس •• نقرأ أن « ايلوس » طلب من أوديسيوس سما ليغمس فيه سهامه قبل المعركة ، فثار أوديسيوس عليه •• الأمر الذى يجعلنا نعتقد ان اتفاقيات جنيف الحديثة التى تحرم استعمال أسلحة معينة كالرصاص السام والغازات السامة • كان لها نظير فى ذلك الوقت **وأن الدعوة الى تحريم استخدام الأسلحة الذرية تنبع من ضمير انسانى عمره ٢٧٠٠ سنة على الأقل !! ••**

كانت اليونان فى ذلك الوقت تتكون من أكثر من دولة •• ولم يكن التمثيل الدبلوماسى الدائم معروفا بين تلك الدول بل كانت الدولة لاترسل بعثة الى دولة أخرى الا فى مهمة معينة فحسب ••

أما (أثينا) فقد كانت جمهورية ديمقراطية ، يحكمها مجلس نيابى تتركز فيه جميع السلطات ، وتمثل فيه مختلف التيارات والأحزاب ، فاذا جاء اليها سفير أجنبى كان عليه أن يتقدم الى المجلس ، وان يخطب أمامه •• ومعنى ذلك ان أية مباحثات مع دولة أجنبية كانت تجرى علنا ، على مرأى ومسمع من الشعب اللاتينى كله • وأن الاتفاق الذى يبرم كانت توافق عليه الأحزاب كلها (أو أغلبيتها على الأقل •• فاذا أرسلت أثينا بعثة دبلوماسية الى بلد آخر ، كان لابد أن تتكون البعثة من أكثر من عضو بحيث تمثل مختلف الأحزاب ، وربما ضمت البعثة الواحدة أعضاء متنابذين متنافرين •• ففى البعثة التى أرسلتها أثينا الى فيليب ملك مقدونيا كان « ديموستين » لا يأكل مع زملائه فى السفارة ولا يصافحهم ولا يبيت معهم فى مكان واحد ••

وفى الناحية الأخرى كانت توجد دولة مقدونيا ، يحكمها الملك فيليب حكما فرديا •• فهو الذى يختار السفراء ، وهو الذى يعقد المعاهدات ، ولذلك كان أغلب معاهداته سرية ••

وقد وقع الصدام بين الدولتين • وبينما كان نواب آثينا يتتابعون على المنبر ولا ينتهون من الجدال •• كانت جيوش فيليب تزحف عليهم ، وتدمر بلادهم ، وتطلب رأس أكثر خطبائهم فصاحة وهو : ديموستين ! ••

ويقف نيكولسون مقارنا بين الدبلوماسيتين : الدبلوماسية فى بلد دكتاتورى والتى تتميز بالسرعة والكتمان والحسم ، والدبلوماسية فى بلد ديمقراطى وتتميز بالبطء والعلانية والجدل •

على أن انتصار مقدونيا على أثينا لا يجب أن يكون دليلا على صلاحية الدبلوماسية الأولى ••

فانتصار مقدونيا كان انتصارا عسكريا لا سياسيا ، وليست القوة دائما فى جانب الفضيلة أو الحق ••

ثم أن لدينا تجربة أخرى حديثة أصلح للقياس ، أشار اليها نيكولسون أيضا اشارة عابرة : يوم وقفت ألمانيا النازية فى وجه دول غرب أوروبا الديمقراطية وعلى رأسها انجلترا ••

كانت أمور ألمانيا كلها فى يد رجل واحد هو هتلر • هو الذى يختار الحرب أو السلم ، يعقد المعاهدات أو يمزقها ، ينفق الميزانية على التعمير أو على التسليح • وكان من حقه أن يبقى المعاهدات سرية أو أن يفاجىء العالم بعقدها ، لأن طبيعة النظام كانت تعفيه من رقابة الناس عليه •• وعلى هذا كان هتلر يفاجىء العالم بمعاهدات معقودة فعلا ، أو بالغاء معاهدات أخرى • وكان يفاجىء الدول باعلان الحرب وبالغزو الفعلى ، فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل مثلا كما فعل فى بولندا •

وعلى العكس من ذلك كانت بلد كانجلترا ••

لاتستطيع الحكومة أنتزيد ميزانية التسليح الا بعد أن تعرض الأمر على البرلمان ، وتنشر الأرقام فى الصحف ، ويتحدث المؤيدون والمعارضون ••

ومعنى ذلك أن كل شىء لابد أن يتم علنا وفى تؤدة ، بحيث يعرفه العالم كله ـ بمافيهم الأعداء ـ قبل ان يتم •

تماما كما نرى الآن فى مسألة مثل تسليح المانيا : عرض الأمر على كل حزب من الأحزاب واحتدام الخلاف فى داخل كل حزب ، قبل أن تقرر انجلترا نهائيا قبول مبدأ تسليح ألمانيا ••

ولكن هذا الأسلوب لم يمنع انجلترا من أن تكون فى مستوى الموقف ازاء هتلر ، ولم يمنعها من احتمال بعض الهزائم قبل أن تحرز النصر الأخير

لم تتكرر فى لندن مأساة أثينا الديمقراطية ، ولم ينتصر هتلر كما انتصر فيليب ، لأن الديمقراطية قد نضجت خلال عشرات القرون حتى وصلت الى تحقيق مبدأ هام لم يكن موجودا فى أثينا هو : الفصل بين السلطات ••

كانت السلطات كلها فى أثينا مركزة فى المجلس النيابى ، هو الذى يستقبل السفراء ! ••

أما الآن فالديمقراطية تقوم أساسا على ثلاث سلطات مستقلة : السلطة التشريعية فقط يملكها المجلس النيابى ، والسلطة التنفيذية تملكها الحكومة • والسلطة القضائية يملكها القضاء •

هذا الفصل بين السلطات يخلق نوعا من التوازن بين ضرورة الاستناد الى رأى الناس فى ابرام كل أمر خطير وبين ضرورة الحسم والبت والسرية خلال مرحلة التنفيذ ••

وكما كانت أثينا ترسل بعثاتها السياسية من أكثر من حزب •• ذهب تشرشل الى مؤتمر بوتسدام بعد الحرب ومعه آتلى ، زعيم الحزب المعارض لأن انجلترا كانت على وشك معركة انتخابية قد تأتى بهذا الحزب المعارض الى الحكم •

وقد كانت اليونان تعرف الكثير من اصطلاحات و« مراكز » القانون الدولى المعروفة الآن ••

كانت تعرف الحياد . والتحكيم بين الدول . وكانوا يختارون للتحكيم بين الدولتين المتنازعتين رجلا مشهورا فى دولة ثالثة ، كأستاذ فى الفلسفة أو بطل فائز فى الألعاب الأولمبية مثلا !..

ثم جاء الشرق !! ..

والى الشرق يعزو المؤلف كل ما تعرفه الدبلوماســـية الآن من مظاهر وشكليات ونفاق ومجاملات .. لأنه يعتقد ان هذه الصفات كلها شرقيـــة أصيلة ! ..

ويعزز كلامه هذا بأن أباطرة القســطنطينية هم الذين أقاموا لأول مرة قصورا فاخرة لاستضافة السفراء ... ووضعوا تقاليد تقضى باقامة الحفلات الباذخة لاستقبال السفراء بقصد التأثير فيهم واقناعهم بعظمة الدولة التى جاءوا اليها ! .. وأنهم أنشأوا ما يمكن أن يوصف بأنه أول ادارة مستقلة للبروتوكول .. بل أن الامبراطور كان يصل فى مبالغته فى التأثير عـــلى السفراء الى حد انه كان يضع أسوداً حية على درجات عرشه ، تزأر من حين الى آخر حتى تبث الرعب فى قلب السفير .. وهو جـــالس مطمئن لأنه يعرف أنها مربوطة بسلاسل خفية من حديد ! ..

ولا شك أن هذا كلام فارغ ! ...

ولا أقول أنه كلام فارغ دفاعا عن الشرق أو تبرئة له من المداهنة والنفاق! ولكن الواقع أن هذه الشكليات ترعرعت خلال تاريخ طويل فى غرب أوروبا بالذات وكتب التاريخ ملأى بقصص المبارزات التى كانت تقع بين سفيرين لاختلافهما حول أيهما يتقدم الآخر فى الطريق ..

فقد كان كل مؤتمر دولى يسبقه خلاف عنيف حول أى المندوبين يدخل باب قاعة الاجتماع قبل الآخر .. حتى تقرر مرة أن يعقد الاجتماع فى قاعة لها ثلاثة أبواب ليدخل كل مندوب من باب فى وقت واحد !..

وخلاف آخر حول من يجلس على رأس المائدة ومن يجلس على الجانبين ‥ فلم ينته الخلاف الا بأن اصبحت كل موائد المؤتمرات مستديرة ، ليس لها رأس ولا جوانب ! ‥

بل لقد حدث سنة ١٧٦٨ ، فى مؤتمر عقد فى لندن ، أن غضب السفير الفرنسى عندما وجد سفيرى النمسا وروسيا يجلسان متجاورين فقام ، وتسلق ظهر مقعديهما ، وحشر نفسه بينهما ، حتى يصبح متقدما فى الترتيب على سفير النمسا ‥ واشتبك الاثنان فى معركة انتهت باصابتهما بجروح بالغة ! ‥

والدبلوماسية خلال القرون الوسطى كلها كانت تجرى على هذا المنوال‥ ولكننا نلمح خلالها عقلا جبارا هو : مكيافيللى ، الذى كانت له فى فن السياسة فلسفة ‥

وفلسفة مكيافللى تتلخص فى جملة واحدة هى أن « لا أخلاق فى السياسة » ! وأن السياسى يجب ان لايرعى فى سبيل تحقيق غايته أى اعتبار آخر ‥ وأن مصلحة الدولة العليا تعفى من كل قيد أو التزام ‥

أى أن العلاقات بين الدول لا يجب ان يحكمها قانون أيا كان ‥

وقد آمن بهذه الفلسفة فى الزمان القديم : سيزار بورجيا وشارل الخامس وفيليب الثانى وغيرهم ‥

وفى الزمان الحديث ظهر فى أوروبا فلاسفة يدينون بها مثل تريتشكه ، وساسة يطبقونها ، مثل هتلر وموسولينى

وهى فى الواقع فلسفة كل عدوان .

وبعد مكيافيللى نجد عقلا آخر من نوع فريد ، تحمل صاحبه آلاما لاتطاق لأنه وجد ـ لسوء الحظ ـ قبل العصر الملائم له بثلاثة قرون ‥

هذا العقل هو : جروتيوس ‥

وهو رجل هولندى ، عاش سنة ١٦٢٥ وكان يعمل قاضيا ٠٠ تأمل العلاقات الدولية التى كانت سائدة فى ذلك العصر ثم وضع مؤلفا خطيرا قال فيه : انه لن يكون فى هذه الأرض أمن أو سلام ما دامت هناك قوى متصارعة لاتهتم الا بكبريائها الوطنى ٠ وان هناك قانونا طبيعيا ينبع من الضمير البشرى يجب أن يخضع له الجميع ، ولن يخضع الجميع لهذا القانون الطبيعي ما لم تشكل هيئة دولية تتكون من محكمين دوليين لامصلحة لهم وتختص بالفصل فى المنازعات الدولية ٠

أى أنه اقترح انشاء منظمة كعصبة الأمم أو هيئة الأمم المتحدة ٠

وكان طبيعيا أن تعتبر الحكومات مثل هذا الرجل خطرا على الأمن ، مضللا للعقول ، فعوقب على هذه الأفكار بالسجن فى قلعة رهيبة ٠٠ وبالرغم من أنه كان شيخا فى الواحد والستين من عمره ، فقد اضطر الى الفرار من القلعة ولاذ بسفينة مهاجرة ، حطمتها عواصف بحر البلطيق فمات غرقا !

وقد مرت بعد جروتيوس ثلاثمائة سنة ٠٠ قتل فيها الملايين وهلكت المدن وتشربت الأرض بالدماء قبل أن تنفذ فكرته وتقام لأول مرة بعد الحرب العالمية الأولى عصبة الأمم ومحكمة العدل الدولية !

ظلت الدبلوماسية حتى انفجار الحرب العالمية الأولى تسير على « الأسلوب الفرنسى » ٠

وكان الأسلوب الفرنسى يتميز بالرشاقة والنعومة والتزام قواعد الاتيكيت المعقدة ٠ وكانت العلاقات الدولية تقوم على أربعة أسس رئيسية:

أولا ـ ان أوروبا هى أهم قارة فى العالم كله ٠ وهى مصدر السلطات فى ميادين السياسة والحرب والاقتصاد ٠ أما آسيا وأفريقيا فهما خاملتان مظلمتان ٠٠ وأمريكا مشغولة بنفسها ، يفصلها عن العالم القديم بحر عريض ٠٠



مكيافيللى ـ هتلر ـ موسولينى

ثانيا ـ أن الدول الكبرى فى أوروبا هى التى تتحكم فى مصير الدول الصغرى وهذه الدول الصغرى قد تكون لها قيمة استراتيجية أو مالية ولكنها لا تمثل أى وزن سياسى ٠

ثالثا ـ ان العلاقات بين الدول الكبرى تسير على أساس من « التوازن الدولى » المحكم الدقيق ، فلا تنفرد دولة واحدة بقوة غير عادية ، وعندما كان يظهر رجال مغامرون ، يعمدون الى الاخلال بهذا التوازن وحصرا السيادة فى بلادهم ٠٠ كما فعل فردريك الأكبر فى ألمانيا ونابليون فى فرنسا ٠٠ كانت سائر القوى تتكتل ضده ، حتى تقضى عليه ، وتعيد « التوازن الدولى » الى نصابه ٠

رابعا ـ أن المباحثات بين الدول كانت تجرى كلها فى جو من السرية والكتمان ، لاينشر عنها شىء ولا يطلع عليها الا رؤساء الدول ورؤساء الوزارات والسفراء ، ولايتعرض المفاوضون فيها لأى ضغط من الرأى العام ٠

حتى فى سنة ١٩١٤ ، قبيل الحرب كان مجلس النواب الفرنسى لايعرف شيئا عن النصوص السرية بين فرنسا وروسيا ٠ وكان السير ادوارد جراى وزير خارجية انجلترا يخفى عن أعضاء مجلس الوزراء الاتفاق المعقود بين هيئتى أركان الحرب الفرنسية والانجليزية ! ٠

فلما إنتهت الحرب العالمية الأولى ٠ تغير كل شىء ٠ وتعرضت الأساليب الدبلوماسية لثورة يمكن ان يطلق عليها اسم : ثورة ١٩١٩ ٠٠

أما أوروبا فقد ضاعت هيبتها القديمة ، وتوزعت القوة بين أمريكا وبين القوى الجديدة الهائلة التى تنبهت فى آسيا ٠

أما التوازن الدولى التقليدى فقد اختل اختلالا شديدا ٠٠ ولم تعد المباحثات تجرى فى أروقة سرية ، بل إنتشر أسلوب المؤتمرات العلنية ، التى يشهدها الجميع ٠٠ حتى أصبحت جلسات مجلس الأمن هذه الأيام تذاع فى التليفزيون !!٠٠ واختفى الدبلوماسيون المحترفون ، وأصبح يتحكم فى الدبلوماسية الساسة والزعماء والنواب والقادة ٠

ويقول نيكولسون أن هذه الثورة فى الأساليب الدبلوماسية ترجع الى عدة عوامل :

أولها .. التوسع الاستعمارى الذى زود معركة المنافسة بوقود جديد . اذ فتحت الغنائم الجديدة شهية الدول الكبرى الى الامعان فى المنافسة والصراع ، حتى شمل العالم كله .. وكادت الدبلوماسية أن تنقلب الى عمل تجارى بحت

وثانيها .. تقدم المواصلات ووسائل الاتصال السريع تقدما كبيرا . فقديما كانت الرسالة تستغرق شهورا قبل أن تصل من عاصمة الدولة الى سفيرها فى عاصمة أخرى .. الأمر الذى أدى الى جعل كل سفير مسئولا عن توجيه سياسة بلده مسئولية مستقلة الى حد كبير : وكثير من السفراء احتملوا مسئولية تصرفات كبيرة لم يستأذنوا فيها حكوماتهم . كالسير ستراوفورد راتكليف الذى احتمل مسئولية اشعال معركة نافارين التى أغرق فيها الأسطول المصرى أيام محمد على دون أن يرجع الى حكومته .

أما الآن .. فان وزير خارجية أى بلد يستطيع أن يتحدث وهو فى مكتبه ، عن طريق التليفون ، مع جميع سفرائه فى مختلف أنحاء العالم . كما يستطيعون هم أن يرجعوا اليه فى كل صغيرة وكبيرة ، أولا بأول .. أى أن تقدم المواصلات قضى على استقلال السفراء القديم ، وجعل المسئولية كلها مركزة بصورة مباشرة فى يد وزير الخارجية ..

على أن نيكولسون يعتقد أن أكبر ما تعرض له الأسلوب الدبلوماسى من تغير ، كان سببه : إنتشار الديمقراطية .

فبانتشار الديمقراطية أصبحت كل حكومة مسئولة أمام شعبها عن كل تصرف من تصرفاتها ، وآختفت ـ أو بدأت تختفى ـ الطريقة القديمة لحل المشاكل الدولية ، وهى المباحثات السرية التى تجرى فى الأروقة المغلقة بين ساسة محترفين . وحل محلها أسلوب المناقشات العلنية المفتوحة .. مثل

جلسات مجلس الأمن والأمم المتحدة ومؤتمر جنيف وغيره ٠

ففى مؤتمر جنيف مثــلا ٠٠ كان منــديس فرانس لا يذهب الى المؤتمر الا فى حدود شروط معينة وافق عليها البرلمان ، وكان لا يبرم أمرا الا بعلم البرلمان ٠ وبعد استشارة الـكتل المختلفة ٠

ويقول نيكولسون فى حزن : ان هذا التطور قضى على « الدبلوماسية » بالمعنى المعروف ٠٠ وان المفاوضات العلنية معناها ان لا مفاوضات !!

وهو فى هذا التعليق يخطىء خطأ فاحشا ، فان هذا التطور لم يقضى على الأسلوب السلمي كوسيلة لحل المنازعات ٠٠ بل زاد فرصته المتاحة له ٠

فالاتفاق العلنى له من القوة الأدبية اضعاف ما للاتفاقات الشخصية أو السرية

ورقابة الرأى العام انما تؤدى الى وضع مصالح الشعوب فى الدرجة الأولى من الاهتمام ٠ وتعلى من قيمة المبادىء الأخلاقية والانسانية فى ســـاحة المنازعات وتضع نهـــاية للفن الدبلوماسى بالمعنى القـــديم : فن الـكذب السياسى !! ٠٠



خطاب الى قارئة مجهولة

الى القارئة الذكية ، التى طلبت فى ختام رسالتها أن أروى لها قصـة امرأة عظيمة ، كانت فى نفس الوقت زوجة عظيمة ..

⊙

لقد قرأت رسالتك ـ الطويلة ! ـ يا آنستى الى آخرها ..

وفى آخرها وجدت توقيعا ، أغلب الظن أنه مستعار ! ..

ولم يكن صبرى على قراءة رسالتك لمجرد أنها كتبت بأسـلوب أعـلى بكثير مما تكتب فتاة لم تزل فى الجامعة بعد . ولـكن لأنى ـ أيضـا ـ وجدت فيها ذكاء كثيرا ، وصدقا كثيرا ..

ولست أظننى مستطيعا أن أشرك القراء فى كل أسئلتك دفعة واحدة ، فأنت تسألين وتناقشـين فى الحب والزواج وفى حرية المرأة فى جسدها ، وفى الاشتراكية ، وفى الموسيقى .. وفى وجود الله ! ..

الحب والجسد .. يكفى فى شأنهما هنا بضع كلمات ..

لقد روى « أفلاطون » فى احدى محاوراته أسطورة تقول : ان الانسان كان فى مبدأ الأمر جنسا واحدا . ولـكن الاله الأكبر « زيوس » غضب على البشر ، فشطر كل مخلوق الى شطرين ، وجعلهـم ذكـرا وأنثى .. فالانسان حين يحب ، انما يستعيد سعادته بالتقائه بنصفه الآخر المكمل له .. أى أن الحب : رغبة فى الاكتمال !..

انها أسطورة طبعـا .. ولكنى أحبهـا .. فهى تلخيص بسيط لفكرة الحب .. وهى أساس منطقى بسيط أيضا للاختيار فى الزواج .

اننانحب مايكملنا ..

والحب الناجح أو الزواج الناجح هو الذى يتحقق به هذا التكامل ..

أما ما أعجبنى فى رسالتك بنوع خاص فهو : قلقك اللذيذ !

انك على وشك الانتهاء من دراستك فى الجامعة ، فأنت فى أكثر فترات العمر اضطراما بالأحلام الباهرة ..

وأنت تريدين أن تكونى امرأة عظيمة . ربما أديبة عظيمة ، أو مكتشفة عظيمة ، أو سياسية عظيمة ... لا أدرى ... فانك لم توضحى لى أى فرع تدرسـين ..

ولكنك تريدين فى الوقت نفسه أن تكونى زوجة ناجحة ..

ومن أسباب قلقك أنك تلاحظين ــ فى اشفاق ــ ان النساء العظيمات ، قلما كن زوجات عظيمات ، وأن المرأة العظيمة اذا وفقت الى الزواج ، فقلما نرى بجوارها زوجا الا أن يكون خاملا مغمورا .. وهو أيضا مالا ترضين بـه !..

وقبـل أن أجيب على هـذا السؤال ، أريد بدورى أن أسألك : ما هى العظمة فى رأيك ؟ .. وما معيارها ؟ ..

انها ــ فى رأيى ــ ليست الشهرة ! فالمشهورون خليط من الساسة وأبطال الملاكمة ، واللصوص والوارثين والنساء غير الشريفات !

وهى ليست السلطة . لأن السلطة سلاح . والسلاح قد يستخدم فى الدفاع عن حق ، وقد يستخدم فى اغتصاب حقوق الآخرين !

وهى ليست الذكاء ، لأن النصاب فى العادة أذكى من فريسته !

وهى ليست فى حرارة الايمان .. فهذا يتوقف أيضا على نوع المعبود !

وهى ليست الثروة . لأن الثراء قد يكون غير شريف . والوصول غير الشريف قد يوصف بأى شىء .. الا بأنه عظيم !

فما هى «العظمة» اذن ؟ ..

فكرى فى هذا السؤال جيدا . فان اجابتك الخاصة عليه ، سوف تحدد لك نوع المستقبل الذى تطلبين ..

أما الاجابة التى أقترحها ـ أقترحها فقط ـ عليك ، فهى : ان العظمة هى الشعور بالمسئولية ، والنهوض بها ! ..

والمسئولية ـ يا آنستى العزيزة ـ لها درجات ..

هناك انسان يعتقد أنه مسئول عن نفسه فقط ! وهو ينهض بهذه المسئولية كاملة ! فلا يقصر فى أن يوفر لنفسه الراحة والأمن ، واللذة ، والبعد عن مشاكل الآخرين ! لا يعنيه من التقدم الصناعى مثلا الا أنه يزوده بآلة يحلق بها ذقنه لتصبح فى نعومة الحرير !..

وأظن أن هذا المسئول عن نفسه ليس فى حاجة الى اهتمامنا به ! ..

وهناك انسان يعتقد أنه مسئول عن أسرته . دنياه لا تعدو ثلاث حجرات تسكنها زوجته وأولاده . الحياة خارج دنياه هذه كأنها تدور فى كواكب أخرى ، قد تحترق وتتساقط فى الفضاء دون أن يصيبه شىء ..

وفى هذا الفريق قد نجد نوعا من العظمة ! .. كثيرا ما نرى رجلا ـ أو امرأة ـ يكافح ثلاثين أو أربعين عاما متوالية بغير كلل ، لكى يظل الموقد فى مطبخه مشتعلا ، والاناء ملآن . وينفق ساعة كاملة يساوم مساومة مضنية لكى يهبط بثمن أقة الخضر مليمين يحفظهما لأسرته.. فهذا نوع من العظمة ،وهو نوع منتشر فى مجتمعنا ، ولا شك أنك تعرفين من أمثلته الكثير ..

وهناك آخر لا يقف احساسه بالمسئولية عند حدود بيته . بل يتعداه الى الفئة التى ينتمى اليها ، أو الى وطنه بأكمله ، هذا النوع الذى يتكون منه وقود الثورات ، أو سكان السجون ، أو الباحثون عن المعرفة ! ..

وهناك أخيرا ، الذين يشمل احساسهم بالمسئولية هذا العالم بأسره ، والجنس البشرى كله · وهذا النوع عادة من واسعى الثقافة ، الذين يرون بين أنحاء هذا العالم الواسع روابط ووشائج لا يراها الآخرون · فترينهم يحزنون لقنبلة تلقى فى آسيا ، أو لمشنقة تقام فى كينيا ·· ويشعرون بأنهم مسئولون ويحاولون القيام بدور يتلاءم مع قدراتهم ومدى احساسهم بهذه المسئولية ··

على هذا الأساس يا آنستى : على أساس الاحساس بالمسئولية ومدى القدرة على النهوض بها ، نستطيع أن نقيس العظمة ، وأن نعرف درجاتها ··

وحذار أن تخلطى بين العظمة والنجاح · فانهما لا يتلازمان بالضرورة ، بل كثيرا ما يفترقان ··

اذا كنت تسألين عن النجاح ·· فاننى أنصحك بقراءة كتب أمريكية كثيرة تملأ الاسواق ، تشرح للقارىء كيف يرفع مرتبه ، وكيف يكسب ثقة رئيسه ، وكيف يصادق الناس الذين ينفعونه ، وكيف يقتنص الحظ ، ويشم اتجاه الريح أى باختصار : كيف يسير فى الزفة ·· دون أن يفكر فى نوع هذه الزفة ! ··

أما العظماء ، فربما كانوا أقل الناس استمتاعا بثمار عظمتهم · ومن المحقق أن صاحب أى دكان أدوات كهربائية يكسب ـ من أجهزة الراديو ـ أكثر مما كسب ماركونى نفسه !

فكرى اذا جيدا ·· وانت ما زلت واقفة على السفح · جربى قوتك ، وقدرى المشقة ، وتأكدى بالضبط مما تريدين !··

فاذا ارتضيت ـ يا آنستى ـ هذا التفسير الذى أقترحه عليك ·· فسوف توافقيننى بسهولة على أن النساء العظيمات والزوجات العظيمات على السواء كثيرات ، وأكثر جدا مما كنت تحسبين ··

أنظرى الى الناس من حولك على هـذا الضوء ، وستجدين نماذج بشرية كثيرة للعظماء والعظيمات ..

فاذا كان الاحتـكاك بالواقع ينقصك ، أو لايسعفك ، فاقرئى عن هـذه النماذج فى كتب الأدب ..

اقرئى قصة « الأم » التى كتبها جوركى .. واقرئى قصص شتاينبك الأمريكى أو مالرو الفرنسى ..

تأملى فيلما سينمائيا مثـل فيلم « أمل بمليمين » الذى يدور حول فتى وفتاة لا يملكان مليما ، ولا مستقبلا ، ويريدان الزواج .. وستجدين أن هؤلاء البسطاء من الناس لهم ـ فى حياتهم ـ لحظات باهرة ومواقف عظيمة !

ولكن ...

كأنى بك لا تقنعـين بهذه البطولات المجهولة ، والعظمـة المطمـورة فى طـين المجتمع .. وتلحـين فى البحث عن أمثلة شهيرة ..

أمثلة شهيرة لزيجات لا تقوم على أساس من فلسفة أرسطو ، الذى كان يعتقد أن المرأة « رجل لم يتم !! » ، فهى أقل منـه فى القـدرة والكفاية ، وكان يقول ان عبقرية المرأة فى اطاعتها ! .. بل زيجـات تطبق نظام « جمهورية أفلاطون » فى المساواة التامة بين الرجل والمرأة ..

وأنت ما زلت تخافين أن يحرمك نبوغك من فرصة الزواج المتكافىء الناجح ..

ان الأسماء الشهيرة كثيرة أيضا .. يا آنستى ..

فى ميدان العلم ؟..

ان الزوجين ، بل العاشقين ، كورى وجهادهما المشـترك فى اختـراع الراديوم يقدمان لنا نموذجا رائعا ..

فى ميدان الأدب ؟ .. انك لا شك تعرفين أن جان بول سارتر وزوجته سيمون دى بوفوار ، كلاهما أديب لامع الاسم ، خصب الانتاج ..

والأمثلة كثيرة ..

ولكننى أريد أن ألبى طلبك ، وأن أروى لك ـ بالتفصيل ـ قصة مشاركة زوجية فريدة ، يحفظها لنا التاريخ السياسى وترويها كاتبة انجليزية اسمها « مرجريت كولم » ..

أما هى ، فقد كان اسمها « بياتريس » ، وكانت فى شبابها الباكر جميلة حقا ، ولكنها ضعيفة البدن ، ضعيفة البصر ، لا تبشر بشىء على الاطلاق ، حتى كتبت أمها تقول : « ان بياتريس هى الوحيدة بين أولادى التى تقل عن المستوى العادى للذكاء ! » .. وكانت أمها محقة فى ذلك .. فكل بناتها « الذكيات » منصرفات الى شراء الفساتين الأنيقة ، والبحث عن أزواج ناجحين .. ما عدا هذه الفتاة الخائبة ، التائهة بين الكتب ، التى تحب الاستماع الى مناقشات الكبار من أصدقاء أبيها .

وليس من المهم فى شىء أن أقول لك أن بياتريس ولدت سنة ١٨٥٨ . فالأهم من ذلك أن أحدثك عن العصر الذى ولدت فيه . فنحن أبناء الأيام التى نولد فيها وأنت مثلا ، لو أنك ولدت ـ بنفس ذكائك ـ قبل مولدك بعشرين سنة ، لما دخلت الجامعة ، ولما ثارت فى نفسك هذه الأسئلة ..

وقد كان من حظ بياتريس ان تولد فى فترة من أخطر الفترات فى تاريخ المجتمع الانسانى !

لقد ولدت بياتريس بعد أن ظهرت الثورة الصناعية وتم وجودها . ووصلت الى دور الصبا وقد انتزع أصحاب الصناعات الجديدة القوة من أمراء الاقطاع والملاك الزراعيين ومن بعض الملوك . واقترن هذا الكشف العظيم بتعاسات تناسب عظمته .. فقد هجر الفلاحون أرضهم ، وأغلق أصحاب الصناعات الصغيرة دكاكينهم ، وأنخرطوا جميعا ضمن جيش

جرار من العمال الصناعيين ، يعملون رجالا ونساء وأطفالا طول النهار وأغلب الليل فى ظروف بشعة ، ويسكنون كهوفا مميتة ، فقد أصبحت الآلة تصنع فى ساعة ما كان يصنعه عشرات الرجال فى شهر . ولم تكن الحكومات قدتعودت من قبل أن تهتم بمشاكل رعاياها «الخاصة »٠٠ كالسكن والبطالة والطعام والأجر !

وهنا ٠٠ لم يجد المفكرون والفلاسفة مفرا من أن يتركوا ما كانوا غارقين فيه من مناقشات حول أصل الكون ، وما وراء المادة ٠٠ ويفكروا فى هذه المشكلة الخطيرة الداهمة ٠٠

ان اكتشاف الصناعة لا يمكن أن يكون سيئا ٠٠ ولا يمكن أن تكون الآلات الحديثة بذاتها مؤدية الى هذا الشقاء ٠٠

اذا فلا بد أن العيب كامن فى طريقة استعمالها ٠٠ والمجتمع بناء على ذلك يجب أن يعاد تنظيمه ٠٠ ولكن كيف ؟ ٠٠

وازدحمت أوروبا بعدد من الآراء والنظريات والمحاولات يكفى لمئات أخرى من السنين !!٠٠

قال الفوضويون : نريد مجتمعا بلا حكومة !٠٠ فاذا كانت الحكومات لم تصنع لشعوبها الا العبودية والاضطهاد والاستغلال فلتذهب الى الجحيم !

وأطلق الفرنسى روبرت أوين لأول مرة كلمة « الاشتراكية » ٠٠ ثم لم يلبث أن ظهر من هذه الاشتراكية ألف صنف وصنف !٠ ٠

كان هناك كارل ماركس وفريدريك انجلز من ناحية يقولان انه لا بد من أن يقوم العمال بسلسلة من الثورات تنتهى بالانفجار الكبير الذى يستولون به على السلطة ويلغون سائر الطبقات الغاء ٠٠

وكانت هناك « الجمعية الفابية » فى لندن ، تدعو الى التدرج والتطور البطىء والى تحقيق الاشتراكية عن طريق الحياة البرلمانية العادية ٠٠

واسم الجمعية الفابية مأخوذ من اسم قائد رومانى هو « فابيوس » كان تكتيكه الحربى يتلخص فى أن لا يشتبك مع العدو فى معركة حاسمة أبدا ، لأن العدو أقوى منه ويستطيع أن يقهره فى هذه المعركة الحاسمة الواحدة ، فهو يفضل أن يحاربه فى سلسلة من المناوشات الصغيرة المتوالية ، حتى يصل الى النصر ، وهذا الاسم وحده كاف لشرح فلسفة الجمعية ..

ثم كان هناك ـ بالطبع ـ ملوك الصناعة الجدد ، الذين يدافعون عن النظام القديم الذى استطاعوا فيه أن يحققوا كل الثراء ولو ذهب الآخرون الى الجحيم !

ولدت بياتريس اذا فى هذا العصر الرهيب .. والأرض مكتظة بالمفكرين ، يملؤها فى وقت واحد ضجيج الفرنسيين برودون وروبرت أوين والألمانيين كارل ماركس وفريدريك انجلز والروسى باكونين والانجليزيين هربرت سبنسر وجون ستيوارت ميل !..

وكان هذا كافيا لأن يجعل التفرقة بين الهدى والضلال أمرا عسيرا ، وكان مما يزيد البحث عسرا أن تكون كل هذه الآراء فى بدء تكوينها ، النظرى والعملى على السواء ، لم يمض عليها الزمن والتجربة الكافيان لاختيارها بعد ..

وكان البيت الذى ولدت فيه بياتريس ينتمى الى فئة التجار الذين يكسبون وتتضاعف أرباحهم . وعلى صالونه يتردد الزعماء والساسة والفلاسفة والنساء المثقلات بالمجوهرات ..

ولكن بياتريس لم تمض فى موكب أمها واخواتها وهن يبحثن عن المتعة والتسلية وحفلات الشاى .. ولم تتعلق أحلامها بزوج « ناجح » يوفر لها الفراغ والثياب الفاخرة والعربة التى تجرها الجياد ..

لقد كانت تقرأ وتثقف نفسها ، وتهتم بمشاكل الجانب الآخر من المجتمع الجانب الذى يعيش فيه التعساء .. حتى استحقت أن تصفها أمها بالغباء !..

وكانت تنتظر فى حياتها رجلا ، يحمل فى رأسه فكرة ، ولو كان خاوى الوفاض !٠٠

ودخل حياتها من هذا النوع ثلاثة رجال !!

كان الأول هو « أوستن تشمبرلن ، النجم اللامع فى سماء السياسة الانجليزية فى ذلك الوقت ، رجل باهر الشخصية خلاب الحديث ، من الزعماء الراديكاليين ، لا يكف عن الحديث عن آلام الفقراء وضرورة تحسين أحوالهم ، كان من طبقتها ولكنه أكبر منها بعشرين سنة ٠ أحبته من جانبها حبا صامتا ، أما هو فقد اهتز فقط لذكائها وثقافتها المبكرة وشخصيتها ٠ وكان ممكنا أن يجعل منها زوجته الثالثة ٠ لولا أن صعود نجمه السياسى كان سريعا ، فلم يتمكن من الوقوف عندها كثيرا ولولا أنها جزعت منه عندما عرفته معرفة دقيقة فكتبت عنه فى مذكراتها الخاصة : « ٠٠ لايستريح الا اذا سحق ما يعترض ارادته !! ٠٠ يحب أن يشعر بقدمه موضوعة على أعناق الآخرين ، كأنه هو الحق المطلق والآخرون خطأ محض ! » ٠ وكأنها كانت تتنبأ بمستقبله ٠ فقد تحول ــ مع النجاح ! ــ من مصلح حر الى استعمارى عريق !

أما الرجل الثانى ، فلم يكن عاشقا ، بل كان معلما ٠ ذلك هو الفيلسوف هربرت سبنسر ٠

كان هربرت يسهر فى صالون خارج البيت ، فلا يجد من يفهم عنه غير هذه الفتاة ، فأحبها واتخذها تلميذة وصديقة ومساعدة له ٠ وكانت فلسفته تكاد تغطى كل مشكلة من مشاكل التفكير فى ذلك الوقت ، ويعنينا منها هنا جانبها الاجتماعى ٠ وفى هذا الجانب كان سبنسر يعتقد أن أكثر ما يسيىء الى الشعوب هو الحكومات ، نظرا لتركز السلطة والقوة كلها فى يدها ٠ وان ظهور الصناعة قد أدى الى توزع القوة بين عدد أكبر من الأفراد ، الأمر الذى أضعف سلطة الحكومة وجعل قدرتها على الطغيان محدودة ٠ وعلى هذا الأساس كان يدعو الى الحرية والاقتصادية المطلقة ، لأن الصناعة فى رأيه لا يمكن أن تتقدم الا فى ظلها ٠ أما الاشتراكية ،

فهى اذ تجعل الدولة مالكة لوسائل الانتاج ، انما تعيد السلطة القديمة الى الحكومة ، وتتيح لها مرة أخرى فرصة الطغيان ، هذا الى أن الدولة لا يمكن أن تتنبأ وتتحكم فى كل العوامل الاقتصادية ، ولو كـان وزراؤهـا من المنجمـين ! .. فمن الخير أن تترك كل شىء لقانون العرض والطلب !

وكان سبنسر ايضا يكره اشتراك الجميع فى التفكير السـياسى . وكان لا يفتأ يردد أن الانسان لكى يصبح خبيرا فى الطبيعة مثلا أو الهندســة يحتاج الى سنوات طويلة من التعليم والدراسة ، أما السياسة ، فان أى صبى بقال يعتبر نفسه خبيرا فيها ، ويعتقد أنه يعرف الحل ، ويطالب بســماع رأيه !!

ولا شك أن هذه الأفكار قد أثرت فى بياتريس فترة من الزمن ، ولكنها لم تستول عليها استيلاء كاملا فى أى وقت .

أما الرجل الثالث ، فقد كان عليها أن تمضى فى طريقها فترة أخرى قبل أن تلتقى به ..

كانت منذ حبها الخائب لأوستن تشمبرلن جريحة القلب ، سيئة الظن ، حتى لقد عقدت العزم على أن تقضى بقية حياتها امرأة وحيدة !

وتركت بياتريس العالم المضىء فى بيتها ، وذهبت تبحث عن أقــارب فقراء قيل لها انهم يسكنون فى بعض أزقة لانكشــير ، يعملون بالأجــر ويقتاتون من الفتات . ذهبت الى هناك لكى تعيش معهم فترة تدرس فيها أحوال العمال ، تمهيدا لوضع كتاب عنهم !

وعاشت بياتريس فى لانكشير زمنا .. تقابل العمال وتطوف بالمصانع وتدخل البيوت ، وتسجل الآراء والبيانات والملاحظات ، وأحبها الفقراء هناك حبا شديدا ، ولم يأخذوا عليها الا أنها كانت أحيانا تدخن السجاير .. وهو منظر لم يكن مألوفا من النساء فى ذلك الوقت !

واكتشفت بياتريس لأول مرة أن هناك شيئا اسمه الحركة التعاونية ، وان هذه الحركة تنتشر بين العمال بسرعة .

وعندما عادت الى لندن ، بدأت تضع أول مؤلفاتها ، دعت فيه الى ديمقراطيات المستهلكين ٠٠ أى الى تكوين جمعيات تعاونية تشترى السلع وتوزعها على الأعضاء بغير ربح ٠٠ ولكنها هاجمت فيه « ديمقراطية الانتاج » أى أن تقوم مؤسسات انتاجية عمالها هم أصحابها ٠ وقالت انها غير نافعة ولا مجدية ، لأنها لن تستطيع أن تصمد أمام مؤسسات الانتاج التجارية العادية ٠

وقد ظلت حتى ساعة صدور هذا الكتاب الأول لها ، على كراهيتها القديمة للاشتراكية ، بل ولقضية المرأة أيضا ٠ فقد اشتركت سنة ١٨٨٩ فى اصدار بيان يهاجم المطالبات بحقوق المرأة السياسية !!

ولكن نقطة التحول فى حياتها كانت تقترب ٠٠

ففى ذلك الوقت بالذات قرأت أول كتاب لجمعية الفابيان ، بعنوان « مقالات فابيانية » ، وكان يضم عدة ابحاث لبعض اعضاء الجمعية ، ولم تكد تفرغ من قراءته حتى كتبت الى صديق لها تقول : « ان أروع ما فيه المقال الذى كتبه سيدنى ويب فان له حاسة تاريخية رائعة » !٠٠

وبعد شهور احتاجت فى بعض أبحاثها الى معلومات عن أحوال الطبقة العاملة فى القرن الثامن عشر ، فنصحوا لها بأن تقابل مستر سيدنى ويب هذا ٠٠

وذهبت اليه ٠ وعادت من عنده مبهورة بكفايته ، تروى كيف أنه تدفق أمامها بالمراجع والبيانات الدقيقة ٠٠ ثم بدأت تلقاه على موائد بعض الأصدقاء ٠٠

أما هو ٠٠ فقد وقع فى هواها من النظرة الأولى !٠٠

أما هى ٠٠ فقد أحبته بالتدريج ٠٠ كانت أكبر منه بسنتين ٠ وكان حبها الخائب لأوستن تشمبرلن قد علمها أن لا تنساق بعيدا وراء العواطف ٠ ولكنها وجدت متعة حقيقية فى مناقشة وتبادل الآراء

والمعلومات والكتب معه · وعندما دعاها للسفر الى جلاسجو لحضور المؤتمر التعاونى لبت الدعوة ·· وهناك ، فى ليلة العطلة ، وبين صيحات السكارى وصخب المحتفلين ، كاشفها للمرة الأولى بحبه ··

ولم تقابل اعترافه هذا باجابة واضحة ، ولـكنها كتبت فى مذكراتها تلك الليلة جملة واحدة : « أخيرا ·· أصبحت اشتراكية !! »

وكأن بياتريس ظلت تقلب أمر زواجها من سيدنى زمنا ، متوقعة أن يقابل أهلها هذا الزواج بمعارضة عنيفة · وبعد سنة تقريبا ، كانا فى عـــربة يتنزهان عندما أحاطت عنقه بذراعها فجأة ·· فاستبد به الفرح ، اذ عرف أنها قد وافقت على الزواج ··

وظلت هى ترسم الخطط لكى تجعل والدها يقبل زواجها من سيدنى ، ولكن أباها مات بعد شهور دون أن يعلم ··

وهنا فقط أعلنـــا أنهما قررا الزواج · ونشر الخبـــر فى مجلة جمعية الفابيان ، أما أهلها فقد قاطعوها وقالوا أنها تزوجت رجـلا من حثـــالة المجتمع ، بالرغم من شهرته ككاتب ، أما أستاذها القديم هربرت سبنسر فقد ذعر ذعرا شديدا ، وقال لها : من أجل سمعتى التى أحـافظ عليـها ، لا أتحمل أن يذاع عنى أن تلميذتى أصبحت سيدة اشتراكية ! مستحيل ! اننى مضطر أن أعلن أن الصلة بيننا كانت شخصية محضة !

ولكنه ، عندما اقترب أجله بعد ١٢ سنة ، لم يجـــد من تزوره وترعى شئونه وتسأل عليه غير واحدة فقط هى بياتريس !

ولم يكن « سيدنى ويب » ـ كما قال أهـــل بياتريس ـ من حثـــالة المجتمع ·· ولكنه كان فقيرا فحسب !··

كانت أمه تملك دكانا للخردوات وأبوه يتنقل من عمل الى عمل ، بائعا أو حارسا ، أو ما شابه ذلك من الأعمال · وتعلم سيدنى أول حروف القراءة من لافتات المحلات فى لندن ، ثم فى المدارس الليلية ، واضطر للعمـــل



سیدنی ویب ـ برنارد شـو ـ بیاتریس ویب

وهو صغير ، ولـكنه عندما صار شابا كان موظفا صغيرا فى الحـكومة ، يتقن اللغة الانجليزية والفرنسية والألمانية ، ويقرأ الفلسفة والاقتصـاد ويتأمل تطور المجتمع ٠٠ وقبل خطبته لبياتريس بقليل ، ترك الحكومة وقرر أن يكسب رزقه من الكتابة فى الصحف ، وأن يكرس بقية وقته لجمعيـة الفابيان ، حيث كان هو وبرنارد شو محورا الحركة والنشاط ٠

كان هذا هو الرجل الذى تزوجته بياتريس ، بنت الطبقـة الغنيـة الناجحة ، وفضلته على الأزواج اللامعين من نجوم المجتمع ! ٠٠ وقد ذهبت فى تحديها لأسرتها حتى انها تخلت عن اسم اسرتها وقـررت أن تحمـل اسمه ، فأصبحت من ذلك الوقت « بياتريس ويب » ٠٠

وانضمت معه الى جمعية الفابيان ٠ وعرفت اعضاء الجمعيـة وأحبتـهم واحترمتهم ما عدا برناردشو الذى قالت انه ساخر أكثر من اللازم ، وانها لا تستطيع أبدا ان تحمله محمل الجد !

أصبحت بياتريس عضوا فى جمعية الفابيان مع سيدنى ٠٠

وقد قلت لك منذ قليل أن اشتراكية جمعية الفابيان تقوم على التدرج ، بل وعلى « التسلل » ٠٠ فلم تكن الجمعية تصطدم مع الحكومات القائمة ، ولم تكن تستند الى أية حركة أو منظمة عمالية ، ولـكنها كانت تقوم بمهمـة الاقناع ٠٠ اقناع الجميع ، حتى الأحزاب المحافظة !٠٠

ولخصت الجمعية رسالتها آنذاك فى كلمتـين : الدراسة ٠٠ والنشر ! ٠٠

دراسة المجتمع الانجليزى من جميع نواحيه ، واستخلاص كل ما يؤيد دعوتهم الى تغيير هذا المجتمع ٠٠ ونشر هذه الدراسات على أوسع نطاق ممكن حتى يتكون حولها اقتناع عام قوى ٠٠

وكانت وسائل « النشر » تشمل اصدار الكتب والنشرات والمجلات ٠٠ واقامة المحاضرات وحلقات البحث والمناقشة ، والوقوف على أى صـندوق فارغ أمام أى جمهور ممكن ، لشرح مبادىء الجمعية ٠٠

ومنذ تزوج سيدنيوبياتريس ، قررا أنيكرسا حياتيهما لهذه الرسالة : رسالة الدراسة والنشر ·· واستأجرا فى قلب لندن بيتا عاشا فيه ثلاثين سنة متوالية ، لم يلبث أن أصبح أقرب الى خلية النحل التى تموج بالحركة والنشاط منه الى العش الهادىء الذى يركن اليه زوجان !

فالآن تبدأ زمالة من تلك الزمالات النـادرة فى التاريخ · زمالة دامت ما يقرب من خمسين سنة ، لم يسكت فيها هذا « الثنائى » عن الدراسة والانتاج والاتصال بالناس ··

كان أول نشاط مشترك لهماكتاب فى « تاريخ الحركة النقابية » ثم كتاب « الديمقراطية الصناعية » ، ومنذ تلك اللحظة لم يتوقف انتاجهمـا حتى أصبحت مؤلفاتهما المشتركة تعد بالعشرات ··

وحتى سنة ١٩٠٥ ، كان اسم سيدنى هو اللامع ، فى حين ظل اسم بياتريس باهتا بجواره ، خصوصا وان الناس كانوا معتادين على نسبة الفضل فى مثل هذا العمل المشترك الى الرجل ··

وفى سنة ١٩٠٥ ، كان ضغط المطالبة بالعدالة الاجتماعية قد اشتد على الحكومة ، وقررت الحكومة الانجليزية تشكيل لجنة تحقيق لتنظر فى أمر القانون العتيق الذى كان معروفا باسم « قانون الفقراء » والذى كان مصدر كثير من الظلم الواقع على الطبقـات الفقيرة ، واختارت الحكومة بياتريس لتكون عضوا فى اللجنة ·

قامت اللجنة بدراسة شاملة للحالة الاجتماعية والاقتصادية فى انجلترا · وكان طبيعيا أن لا يتفق أعضاؤها على رأى واحـد ·· وانتـهى الأمر بـأن يصدر عنها تقريران : تقرير للأغلبية يحمل توقيع كل الأعضاء عدا عضوا واحدا ·· وتقرير للأقلية تكتبه وتوقعه بياتريس وحدها !!

وأنفجر تقرير « الأقلية » كالقنبلة !··

لقد كان الجو العام فى انجلترا محافظا وكانت نقابات العمال ينظر اليها شذرا على أساس أنها وباء يجب القضاء عليه ، وكان أكثر الناس تساهلا

يعتبرها نوعا من البثور تظهر على وجه المجتمع فى فترات الأزمة ثم لا تلبث أن تزول ·· وكان التفكير السائد المستتر فى نفـوس الناس أن الفقـر جريمة !·· وأن الفقراء وحدهم هم المسئولون عن فقرهم ، اما لأنهم جهلة أو لأنهم أغبيـاء !·· وكانت الحـكومة تعتبر نفسـها غير مسئولة عن رعاياها الذين لا يجدون عملا ، أو لا يجدون سكنا أو طعاما ··

ولكن تقرير بياتريس ـ مستفيدا من كل تعاليم جمعية الفابيـان ـ جاء معارضا لهذا كله ··

لقد دعت فيه الى الاعتراف بنقابات العمال · ودعت الى تدخل الحـكومة فى الحياة الاقتصادية لتأمـين العمال ضد العجز والبطـالة والشـيخوخة والمرض · وطالبت بوضع نظم للتأمـين على العمال ضد هـذه الكوارث ، ولتوفـير العلاج لهم ، ولاعانة المتعطل فى فترة بطالته ·

هذا التقرير هو بعينه تقريبا الذى أصبح بعد أربعين سنة برنامجا رسميا لحزب العمال ، ثم لحـكومة العمال · وهو المنبع الأول لتقرير « بيفردج » الشهير الذى ظهر بعد الحرب الأخيرة ! ··

وقد يبدو الحديث عن هذه الأشـياء الآن عـاديا · وقد ترين أنهـا استقرت فى الأذهان ـ حتى فى أذهان الكارهين لها ـ كحقـوق طبيعيـة للمواطنين · ولكنها لم تكن كذلك منذ نصف قرن ·· حـين صدر تقرير بياتريس ··

ورفضت الحكومة بالطبع أن تأخذ بتقرير « الأقلية » · ولكن صدور هذا التقرير كان فرصـة فريدة ، اقتنصتها الجمعية للدعاية لمبادئهـا على نطاق واسع ·

وتتزعم سيدنى وبياتريس حملة هائلة للدعاية لهذا التقرير ··

أعلن سيدنى وبياتريس ان لكل مطبعة الحق فى أن تطبع التقرير وأن تبيعه كما تشاء ·· فتدفقت من المطابع طبعات مختلفة الأشكال والاحجام ، وبأسعار زهيدة جدا ··

وحاولت الحكومة أن تقاوم هذا النشر فأنذرت بياتريس بأن التقرير ملك للحكومة ، ولكنها لم تذعن لهذا الانذار ، ثم أعلن سيدنى وبياتريس عن تكوين جمعية للدفاع عن هذا التقرير وانطلقا يعملان عملا مضنيا بغير انقطاع لتكوين هذه الجمعية ٠٠ فلم تمض شهور حتى أصبح لها مقر ، وبلغ عدد الأعضاء المقيدين فيها ١٦ ألف عضو ، يضمون رجالا ونساء وشبابا من جميع الطبقات والطوائف والهيئات ٠٠ حتى الشاب ونستون تشرشل ، كان أحد المشتركين فيها !

واذ أصبح للجمعية هذا الدوى والانتشار ، بدأ سيدنى وبياتريس يحولانها من جمعية للدفاع عن التقرير الى هيئة تطالب بتغيير النظام الاجتماعى بقصد القضاء على الفقر ، بدلا من الانصراف الى علاج آثاره ٠٠

وهنا ٠٠ كان لابد أن ينفض عن الجمعية الكثيرون ٠ كان لابد أن يخرج منها كل الذين دخلوها بدافع المروءة ، عندما وجدوا أن رسالتها تتطور الى احداث تغيير أساسى كبير ٠٠ يضر بمصالح الكثيرين منهم ٠ وكان من أول الخارجين ٠٠ الشاب ونستون تشرشل !٠٠

وبعد سنوات من الكفاح الرائع تمزقت الجمعية ٠ ولكن بقى منها أمر هام ٠٠ هو اقتناع سيدنى وبياتريس بأن الاعتماد على الأحزاب الموجودة وعلى الأفراد لا يجدى ٠ وانه قد آن الأوان لتكوين حزب اشتراكى قوى يستمد قوته من نقابات العمال ٠

فبعد أن اشتركا فى جمعية الفابيان ، وأسسا مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية ، وبعد أن خاضا معركة قانون الفقراء ، وبعد عشرات من الكتب ومئات من الأبحاث والمحاضرات عن النقابات وحركات التعاون والعمال ، وجد الزوجان ، الزميلان ، ان الوقت قد حان لتكوين حزب ٠٠

وأعلن عن تكوين حزب العمال ٠٠ وكان المهندسان اللذان وضعا برنامجه ورسما له خطة العمل هما : هندرسون وسيدنى ويب ٠٠ وعندما يقول التاريخ سيدنى فهو يعنى بياتريس أيضا ٠٠ كما أنه عندما يقول بياتريس انما يعنى سيدنى !٠٠

ودخل الحزب الجديد أول معركة انتخابية سنة ١٩١٨ ، وفاز بستين مقعـــدا فى مجلس العموم . وأصـــبح بذلك هو المعارضـــة الرسمية لحكومة صاحب الجلالة !

وكان أكثر نواب الحزب من العمال غـير المدربين على العمل ، وجعلت بياتريس رسالتها أن تعلمهم وتدربهم وتعقد لهم حلقات المناقشة والبحث .

وكانت بيـــاتريس تعتقد أن أعضـــاء الحزب ـ نوابا وغير نواب ـ لن يستطيعوا شيئا كثيرا ، اذا كانت زوجاتهم جاهلات برسالتهم .. فأنشأت جمعية لزوجات أعضاء الحزب ، أطلقت عليها اسم « جمعية نصف الدائرة » ـ فالدائرة لا تتم الا برجل وامرأة ـ جعلتها أداة لرفع الزوجات الى مستوى رسالة الأزواج .. حتى يصبحن مثلها شريكات وزميلات .. لا مجـــرد تابعـــات !..

وبعد .. يا آنستى .. فأظنك سوف توافقين على اعفـــائى من سرد بقية القصة ... فقد أردت أن أقدم لك « صورة » فحسب .. لا قصـــة كاملة ..

هذا الى أن بياتريس وسيدنى قد عاشا طويلا .. عاشـــا حتى تركـــا الثمانـــين .. لا ينقطع كفاحهما ، ولا يتردد سيدنى عن خوض كل معركة انتخابية ، ولا تتخلف بياتريس عن خوض المعركة معه ، فى دائرته ..

وقد أصبحا عجوزين ، وباتت أعصابهما المرهقة لا تحتمـــل ضجيج لندن . وذات يوم نشرت الصحف فى اعلاناتها المبوبة اعلانا صغيرا يقول « مسز ومستر ويب يريدان شراء بيت ريفى ، قـــريب من لنـــدن ، فى مكان لا تصل اليه أصوات الديكة والكلاب !! » ..

أما هو ، فقد أصبح عضوا فى اللجنة العليـــا للحزب وصـــاحب الرأى الأول فيه ، ودخل وزارات العمال أكثر من مرة ، وحمـــل لقب « لورد باسفيلد » حتى يدخل مجلس اللوردات ويستريح فى هـــذه السن من

الانتخابات ، ولكن بياتريس رفضت أن تحمل لقب « ليــدى باسفيلد » وأصرت أن تبقى « بياتريس ويب » وشنت عليها الصحف حملة عنيفة لرفضها أن تحمل لقبا انجليزيا عريقا !

ولأول مرة خلال زمالة دامت خمسين سنة ، اضطرا الى الافتراق فترات طويلة ٠٠ هى فى بيتها الريفى ، وهو فى أعماله الضرورية فى لندن ٠٠

ولأول مرة ، عندما أصبح يغيب عنها ، ندمت على القرار الذى اتخذته عندما تزوجت منذ نصف قرن : بأن لا تنجب أطفالا !٠٠

ولكن أقاربها الذين انفضوا عنها يوم تزوجت ذلك الشاب الاشتراكى المجهول الخالى من الأناقة ، أصبحوا يحجون اليها فى بيتهــا الريفى ، ويقدمون اليها أطفالهم ، فتقضى معهم أوقاتا سعيدة ٠٠

وأصبحت الهيئـــات الرسمية أيضا تعترف بهـا ، فالاذاعـة الرسمية تدعوها من حين لآخر الى الكلام ٠٠ وأكاديمية لندن تضـــمها عضوا ، فتصبح السيدة الوحيدة فى الأكاديميـة ومدرسة لنـــدن الاقتصـــادية تضع فى مدخلهالوحتين لها هى وزوجها اللذان قاما بانشاء المدرسة ٠

ولــكنها كانت فى أيامها الأخيرة ساخطة على حزب العمــال ٠٠ لا تفتأ تردد أنه أصبح يشبه حزب المحافظين فى وجوه كثيرة ٠ وكانت تســأل زوارها دائما ، عن الشبان اللامعــين فى الحزب أو تتعجل ساعة توليهــم زمام القيادة لعلهم يكونون أصلب عودا ٠٠ وكان هؤلاء الشــباب الــذين يترددون عليها ويستمعون الى آرائهــا هم : ســتافورد كريبس وكليمنت أتلى وهربرت موريسون !٠٠

ولم تتوقف خلال ذلك كله عن التأليف والدراسة لحظة واحدة ! ٠٠

وماتت بياتريس سنة ١٩٤٣ ، خلال الحرب الأخيرة ٠٠

وعندما فاز حزب العمال لأول مرة بالأغلبية المطلقة سنة ١٩٤٥ وبدأ فى تنفيذ برنامجه ، وقف هارولد لاسكى يقول :

ــ ان كل الناخبين الذين اختاروا حزب العمال ، يتوجهون اليوم الى ذكرى بياتريس وسيدنى ويب ويحيون « زمالتهما »

فما رأى « القارئة المجهولة » ؟..

اننى لم أقدم لك هذه الصورة لكى تصنعى مثلها ، أو لتحاولى تقليدها .

كلا .. فان أروع ما فى التــاريخ أن النــاس يتعلمون منه ، ولــكنهم يضيفون اليه !

وأنت قد ولدت بعد ميلاد بياتريس بثمانين سنة على الأقل .. ثمانون سنة تفصلك عنها لا بأيامها فحسب ، ولكن باكتشــافاتها وتجــاربها وأحداثهــا !..



وجه جديد في عائلة نهرو

« نحن ثلاث شقيقات .. ليكها وريتا وأنا . نشأنا والهند مسرح تدور عليه دراما سياسية عظيمة ، سوف تبقى مشاهدها عالقة بأفئدتنا الى الأبد وهذا الكتاب يروى قصة الأثر الذى تركته هذه الدراما فى حياتنـــا ، لعلها أن تعجب أولئك الذين لم تكن لهم طفولة كالتى مرت بنا ! »

هكذا تقول الفتاة الجميلة التى لايزيد عمرها على العشرين الا قليلا .. وهى تقدم كتابها الحافل بصور من الأحداث الكبيرة والمشاعر الرقيقة !

والفتاة مؤلفة هذا الكتاب اسمها « نايَنتارا ساجال » أو « تارا » كما تنـــاديها أمهـــا . أما أمهـــا فهى السيدة فيجايا لاكشيمى ، شقيقة نهرو المعروفة التى زارت مصر عدة مرات ، ورأست دورة الأمم المتحـــدة منذ سنتين والتى تشـــغل الآن أهم منصب دبلوماسى فى بلادها ، وهو منصب سفيرة الهند فى انجلترا ..

وعندما كانت الهند مستعمرة ، كان الحاكم الانجليزى للمقاطعة يقول عن عائلة نهرو « هذه العائلة الملعونة » !.. وكانت عائلة ملعونة حقا ، فهى التى تثير الاضطرابات ، وتبث الثورة ، وتدخل بأسرها الى السجن .. من الجد العجوز « موتيلال » والد نهرو الى الحفيدة « ليكها » التى تبلغ الثانية عشرة من عمرها فحسب !!

وليس فى الأحداث التى ترويها لنا « تارا » جديد .. فالدرامة التى مثـــل أدوارها أربعمائة مليون هنـــدى ، والتى تمخضت عن اســتقلال الهند وتحولها الى قوة دولية كبرى ، أحداثها معروفة للجميع ..

أما الجديد ، فهو الزاوية التى تنظر منها « تارا » الى الأحداث بنظرة طفلة ثم شابة تنظر الى الحوادث من الباب الخلفى .. فهى ترسم لنا صور

المجاهدين والمجاهدات لا فى ميادين المعركة ، ولكن فى بيوتهم ، فى ساعات راحتهم ولهوهم ·· فى طعامهم ونومهم وبين أطفالهم ·· ومن هنا جاءت رقة الـكتاب وعذوبته ·· وانسانيته !!

ففي فصل بعنوان « نحن والسياسة » تروى لنا كيف بدأت وهى طفلـة صغيرة تفتح عينيها على ما يحيط بها من أحداث ·· فتقـــول « كنت فى الثالثة من عمرى · وكنا ـ أمى وأبى وشقيقاتى ـ نتناول الشاى ساعة العصر ، وقد صنعت لنا أمى فى ذلك اليـــوم كعكة بالشيكولاته · وكان وجود كعكة الشيكولاتة مع الشاى نوعا من الترف لا يتكرر كثيرا ، فلـه فى نفوسنا الصغيرة فرحة كبيرة ·· وبينما نحن نشرب الشاى ونرمق الكعكة بشغف اذ دق الباب ودخل علينا عدد من جنود البوليس · وسألت أختى « ليكها » عن سبب قدومهم فقالت لها أمى : لقـد جاءوا لكى يأخذوا أباكِ الى السجن · وليس هذا مزعجا ، لأن « بابو » يريد أن يذهب اليه · فقمنا وقبلناه جميعا ، وودعناه ، ورأيناه ينصرف وهو يتبـادل الحـديث مع رجال البوليس · ولما أغلق الباب وراءه أكملنا التهام كعكة الشيكولاته ·

ومن تلك اللحظة بدأت تعلم شيئا عن حـركة العصيان المـــدنى التى يتزعمها غاندى ، واقترن السجن فى عقلها الباطن بكعكة الشيكولاتة ، حتى أطلقت على هذا الكتاب اسم « السجن وكعكة الشيكولاته »

ثم هى تصور لنا انطباعات الفتاة الصغيرة ازاء هـذه الأحـداث التى لا تفهمها بالضبط فتقول « وعندما وجدنا أن أبى وأمى وخـــالى وجدى يذهبون كلهم الى السجن أصبحت أنا وشقيقتاى نريد أن نكبر بسرعة لنذهب اليه مثلهما !!·· وقد جربت أختى الـكبرى « ليـكها » السجن بعد ذلك عندما بلغت الثامنة عشرة ، وعادت تقول لنا « ان الحياة هنـــاك ليست سارة كما كنا نظن ! »

وفى جميع صفحات الكتاب نلاحظ أن « تارا » كانت تتأثر بأمها وتعجب بها أكثر مما تتأثر بأبيها وان كانت تكن له نفس التقـــدير · وقـــد ذهبت أمها أيضا الى السجن وسمحت السلطات لها يوما وهى فتاة صغيرة

بأن تزور أمها فى السجن ، وهى تسجل تلك اللحظات فى سطور بارعة فتقول « كنا قد تعودنا أن نرى « مامى » فى البيت تحـوطها هـالة من الجمال والرقة · كنا نراها تخرج فى الصباح الباكر الى الشرفة ، وتركع على ركبتيها ثم تأخذ فى تنظيم الزهور فى آنيتها بعناية وصبر · وكنـا نسمع صوت ضحكتها الفضية يترامى الينا من حجرة الصالون فى الليالى التى يزورنا فيها الضيوف · وما أقسى أن نرى أمنا هذه تذهب الى السجن الكئيب ، وأن نراها واقفة وسط عشرات غيرها فى ثياب السجن الخشنة تلوح لنا من وراء القضبان ! ·· وأن نرى السيارات المسـلحة والجنـد المدججين يأتون ليقبضوا على هذه المرأة الجميلة الرقيقة التى تدعو الى عدم العنف !! »

حتى الخدم فى البيت كان لهم دور فى المعركة · وعندما وقف خادمهـا الساذج هارى فى المحكمة وسأله القاضى الانجليزى :

ـ ما عمرك ؟ ··

سكت الخادم طويلا يفكر ثم قال : لا أعرف بالضبط ·· ولكنى بدأت أحلق ذقنى عندما تخرج مستر نهرو من الجامعة !!

فلم تتمالك تارا وشقيقتها أنفسهن من الضحك ·· وكن جالسات فى مقاعد المتفرجين !!

وبنفس الطريقة تحكى قصة أول مرة رأت فيها غاندى :

« كنت فى الرابعة من عمرى ، وجاء غاندى الى بيتنا وجلس فى الحديقة يقيم احدى صلواته بين جمع من الناس ··

« وأعطتنى أمى باقة من الورد وطلبت منى أن أقـدمها اليه ، وعندما نزلت الى الحديقة اتجهت الى أبى ، فجذبنى من ذراعى الى رجل ضـئيل يجلس على الأرض ·· وصحت بصوت عال : ان شكله قبيح ·· لن أعطيه الزهور !

« وضحك الرجل الجالس على الأرض وربت على خدى وقال : أرجو أن تظلى صريحة على الدوام ! » ..

من هذه الحوادث الصغيرة والانطباعات المتوالية تكـون الوعى السياسى عند « تارا » ..

وهى عندما تحاول الرجوع بذاكرتها الى بدء ظهور هذا الوعى فى نفسها لا تستطيع أن تحدد تاريخا معينا « لقد بدأ اهتمامنا بالسياسة ينمـــو تدريجيا وبغير ارادة منا . لقد نشأنا فى الوقت الذى انضوت فيـه الهنـد تحت زعامة غاندى . وكنت أنا وشقيقتاى من أصغر بنات الهند اللواتى أدركهن جانب من إشعاع غاندى الذى أضاء بلادنا كلها ..

« ولم نكن نرى غاندى كثيرا . ولكن أسرتنا كانت ترى فى خالى جواهر لال نهرو رمز انضواء العائلة كلها تحت لواء غاندى . فقد كان خـــالى مقربا اليه ، وكان من أوائل الذين انضموا الى حركته »

ولابد أن يخطر لنا فى هذا المقام سؤال ..

ان « تارا » وشقيقتيها لم يتمتعن بالطفولة الهادئة التى يعرفهـا أغلب الناس . كانت طفولتهن عاصفة ، أهون ما فيها أن تذهب الأم ويذهب الأب الى السجن كل حـين وآخر .. فكيف كان أثر هذه الحياة المضطربة على طفولة البنات الصغيرات ..

ان « تارا » تشرح لنا هذا الأثر ، فى أسلوب من الزهو والفخر ! ..

« لقد كان نمونا ونضجنا مضطردا مع نمو النضج السياسى فى الهنـد على أساس من التضحية وضبط النفس والسلم . وقد أثر هذافى حياتنا ، وبعث فيها نوعا فريدا من الروعة ! ..

الروعة ؟.. ربما تبدو هذه الكلمة غريبة فى وصف فترة عاش فيها أبى وأمى بعيدين عنا ، بين السجن والعمل السياسى الشاق . ولكن هذا

بعض سحر غاندى . لقد علمنا أن نرى فى هـذا الكفاح نوعا من الفخـار لا يدانيه أى فخر !!

« لقد كان أروع ما فى تعاليم غاندى أنها أقنعت النـاس بأن يهجروا روتـين حياتهم الرتيب ويخوضوا معركة الحرية فى بسالة . كانت دعوته الى دخول السجن نوعا من عدم التعاون مع الحكومة بأسلوب سـلمى . وكان الذهاب الى السجن يتم فى بساطة ولباقة وكبرياء وقد أدى برنامج عدم التعاون هذا الى الفصـل بين الأزواج وزوجـاتهم ، وبـين الآباء والأمهات وأبنائهم ... كان معنى هذا ارتباك الحيـاة العادية التى يجب أن تتوفر للأطفال وان ينعدم شعورهم بالأمن ، الأمر الـذى يؤدى الى اضطراب نفسياتهم .. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث لنـا ، بل عـلى العكس ، لقد خلق لنا ذلك عالما جديدا من القيم التى أصبحنا نؤمن بهـا ونعيش من أجلها .

« نعم ، لقد كانت تمر بنا ساعات موحشة من فراقنا عن أبينا وأمنا ، كنت أفتقد أمى فى بعض الليالى وأبكى فى الخفاء . اذ كان من تقاليـد أسرتنا أن لا نبكى علنا مهما كان الأمر ، ومع ذلك ففى كل مـرة كانت الأزمة تمر ، وكنا نزداد اقتناعا بأن أبانا وأمنا يسلكان الطريق السليم .

« لقد أصبح الوقت الذى نقضيه معهما جميلا ، لأنه كان قصـيرا ! وأصبحت حياتنا العائلية أكثر سعادة ، لأننا كنا نشعر برابطة عميقة من المثـل تربط بين قلوبنا !! »

ولا ننسى فى هذه التربية الرائعة ، فضل الأم ! ..

بل ان تربية الأم فيجايا لاكشيمى لبناتها على هذا النحو ، ليعد أروع ما قامت به من أعمال ! ...

أليس رائعا حقا ، أن تعرف هذه الأم أنها ذاهبة الى المعـركة غدا ، فتترك لصغرى بناتها ــ ريتا ــ رسالة تشرح لها فيها كل شىء ، وتقول فى

ختامها « سنذهب جميعا الى السجن وستبقين أنت وليكها وتارا فى الخارج وليس معنى ذلك أنكن غير مشتركات فى العصيان المدنى · ان مجـــرد احتفاظكن بعلم المؤتمر مرفرفا على البيت لهو دور كبير ! ·· فكـرى فى بلادنا الكبيرة الجميلة ، وفى أمك وأبيك وخالك الذين يساهمون فى جعلها حرة ··· أليس هذا شيئا تفخرين به ؟! »

الأم ·· تصبح وزيرة !!

ومن أجمل صفحات هذا الكتاب ، الصفحات التى تحكى فيهـا « تارا » كيف دخلت أمها معركة الانتخابات ، وكيف فازت في المعركة ، وكيـف أصبحت أول امرأة تشغل منصب الوزيـرة فى الهنـــد ·· وكيف كان احساسها هى الابنة الصغيرة بهذه الأحداث !··

ففى سنة ١٩٣٦ ، قرر حزب المؤتمر أن يدخل الانتخابات الاقليميـة لعضوية المجالس التشريعية · وعادت « تارا » من أجازتها الدراسية لتجد أباها وأمها قد رشحا نفسيهما فى دائرتين مختلفتين ··

وسألت تارا أباها : كيف تدخلون الانتخابات فى بلاد ليست حرة ، والمجالس يملك الحاكم العام الانجليزى حق حلها ؟··

وقال لها أبوها : لقد قررنا دخول الانتخابات بقصد التحدى · ثم أن الانتخابات سوف تساعد الحزب على الاحتكاك بالناس والاتصـــال بهم عن كثب · اننا لا نريد الفوز بالأغلبية بقدر ما نريد أن نثبت تعلـق الجماهير بدعوتنـــا ··

ثم تسرد لنا المصاعب والمشاكل التى واجهت أباها وأمها كمرشـــحين « كان لا بد للفلاحين الناخبين أن يقطعوا أميالا طويلة حتى يصــــلوا الى صناديق الانتخاب ولم يكن الحـــزب يملك السيارات التى ينقـــل بهـا أنصاره ، كما كان يفعل خصوم الحزب من المرشحين الأغنيـــاء · ولـكن المشقة لم تكن شيئا جديدا على الفلاح الهندى · انه قد يرتاب فى الراحة التي تعرض عليه لأنه لم يتعود المعاملة الكريمة · ولكنه لا يرتاب فيـــك



ڤيجـايا لاكشيمي

أبدا اذا عرضت عليه أى لون من المشقة !!٠٠ ودعا الحزب كل الهنود الى الزحف نحو صناديق الانتخاب بنفس الروح التى يحجون بها سيرا على الاقدام الى نهر الكنج المقدس !! ٠٠ وقال لهم ان التصويت شيء مقدس فى حياة البلد كالحج !! ٠٠ وانتشرت صيحة « الأقدام الى صناديق الانتخاب ! » ٠٠ والناس يظهرون بطولتهم اذا رأوا مثلا واحدا من البطولة ماثلا أمام أعينهم وقد ساروا الى الصناديق لأنهم رأوا غاندى يسير أميالا طويلة ، وزاده البسيط على كتفه ، الى شاطىء المحيط ، ليخرق قوانين الملح !٠٠ وخرجت الهند من معركة الانتخاب وقد أبت أن يشتريها المال أو الضغط ، ونجح حزب المؤتمر نجاحا ساحقا فى الانتخاب ! »

فكيف عرفت « تارا » نبأ فوز أمها فى الانتخابات ؟٠٠

« كانت الأيام التى سبقت النتيجة حافلة بالقلق ، لم نكن نأكل أو ننام ، لا نكاد نسمع صوت التليفون يدق حتى نتسابق اليه ٠ وفى ذات ليلة كنت أتناول العشاء أنا وليكها وريتا عندما وصلت الينا برقية ، فتحتها ليكها وصاحت « مامى نجحت ! » ٠٠ وتبادلنا النظرات أول الأمر فى ذهول ، ثم أسرعنا الى حجرة جدتى حيث كانت تجلس على الأرض وأخبرناها بالنبأ السار ٠٠

« وقد تكرر نفس المنظر عندما تلقينا بعد قليل أنباء تقول أن أبى قد هزم خصمه فى الانتخابات ، وكان من كبار الملاك الأغنياء ٠٠

« وفى الصيف التالى تلقينا من مامى خطابا تقول انها عينت وزيرة للصحة فى وزارة المقاطعة ٠ وفى جميع أنحاء الهند أخذت الصحف والمجلات تنشر صورة مامى وتتحدث عن شعرها الناعم الجميل ، وتقول انها أول هندية تشغل منصب الوزارة ، بل ومن أوائل النساء اللواتى شغلن هذا المنصب فى العالم كله ! ٠٠ وكنا نحن البنات الصغار نتلقى التهاني من الجميع فى فخر !٠٠

« وقد استمرت حياتنا كما هى بعد أن أصبحت أمى وزيرة ، فيما عدا رحلاتنا الى مقر الوزارة ، نحمل لأمى طعامها فى سلة صغيرة ، ونسمع الناس يشيرون اليها قائلين « جناب الوزيرة ! »

« وكانت مامى قد فرشت مكتبها فى الوزارة بذوقها البديع ، وملأته بأوانى الأزهار المقطوفة من حديقة الوزارة . وقد فزع السكرتيرون أول الأمر عندما بدأت مامى تعيد ترتيب المكتب على ذوقها . وكانوا يعتقدون أن أية لمسة نسائية رقيقة فى المكتب سوف تبعده عن جو العمل الجاد . وعندما طلبت أمى قطف الزهور من الحديقة لوضعها فى الحجرات عبر الموظفون عن استيائهم علنا ، وقال أحدهم لها :

ـ ولكن ياسيدتى ان هذا لم يحدث من قبل ..

فقالت له : فليحدث من الآن !

وحملت سلة صغيرة ونزلت الى حديقة الوزارة تقطف الزهور بنفسها !!

ورأى الموظفون وزيرتهم تقطف الزهور فى الحديقة أمام أعين الرائحين والغادين ، فأسرعوا الى القيام بدلا منها بهذا العمل !

وأصبح اسم فيجايا لاكشيمى أسطورة فى المقاطعة . وأخذت كل أم تطلق اسمها على أول بنت تولد لها . كانت البنات الصغيرات يقلدنها ، والسيدات العجائز يتحسرن لأنها لم ترزق ولدا ، اذ أنجبت ثلاث بنات فقط !! ..

وقد كان منظر امرأة تخوض مناطق الكوليرا وتزور أماكن المجاعات منظرا غريبا حقا . بل لقد ظل بعض الفلاحين البسطاء لا يصدقون ما يقال لهم من أنها امرأة . حدث مرة وهى تلقى خطبة فى جمع من الفلاحين أن همس زوج فى أذن جاره يقول :

ـ تصور .. أنها امرأة حقا !!..

وتلاحظ «تارا » هنا أن الحركة النسائية للمطالبة بحقوق المرأة لـم توجد فى الهند أصلا • ذلك أن غاندى دعا النساء منذ بدء الحركة الوطنية الى اتخاذ مكانهن فى صفوف الحركة الوطنية بجوار زجالهن • كما تلاحظ أن تحرر المرأة فى الغرب قد صـــاحبه تغــير منظرها وملابســها ، فظهر الشعر المقصوص والثياب القصيرة البسيطة • أما فى الهنـــد فقد ظلت المرأة رغم تحررها محتفظة بالسارى الجميل والشعر الطويل فأثبتن بذلك أن المرأة تستطيع أن تؤدى واجبها كاملا مهمـــا كانت ثيـابها رقيقة أو طبيعتها ناعمة !••

وتمضى الأحداث بفتاتنا الذكية المرهفة الحس ••

وببلوغها سن الشباب الباكر تعرف طريقها الى المظاهرات •• وتقع أختها الكبرى « ليكها » فى قبضة البوليس . وتبقى هى وأختها الصغرى ريتا مطلقتى السراح ••

وتلتقى الأم والأب فى السجن لحظات ، يقرران فيها ارســـال تارا وريتا الى بلد بعيد آمن تتلقيان فيه العلم ، ولما كانت الحرب العالمية الثانية ناشبة فى ذلك الوقت فىأوروبا ، فقدقررا ارسال البنتين الى أمريكا ••

وذهبت الفتاتان الى سجن الرجال ثم الى سجن النســاء تودعان الأم والأب ، ثم ركبتا الباخرة الى أمريكا ، الى لوس انجلوس ••

فكيف رأت المؤلفة الشابة أمريكا ؟

الأنوار الساطعة ، الخاطفة ، المرنة •• الحيـــاة السريعة التى تلهث مترنحة من التعب •• البائعات الفاتنات فى كل المحلات ، كل واحـــدة منهن تقف طول النهار وهى تحلم بالمخرج السينمائى الذى قد يمر بهـا مصادفة فيكتشفها ويجعلها نجمة سينمائية لامعة !•• الناس لا يعرفون شيئا خارج حدود أمريكا •• تسأل واحدا من الناس : هل تعرف الهند ؟ فيقول لها : أليست تلك البلد التى تقع بالقرب من مصر ؟! فتحزن ••

لأن كفاح أربعمائة مليون » من البشر ، وحضارة خمسة آلاف سنة ، ليست هنا الا ٠٠ « تلك البلدة القريبة من مصر ! » وتسأل لماذا يعرف مصر ولا يعرف الهند فتعرف السبب : ان هوليوود أخرجت أخيرا فيلما عن كليوباترا ! واذا سألها احد عن الهند كان السؤال : هل عندكم سيارات وراديوهات كما عندنا ؟ ٠٠ فاذا أجابتهم : ليس بهذه الكثرة شعروا بالتفوق والارتياح » ؟!

وفى خلال حياتها فى أمريكا لا تنقطع لحظة واحدة عن متابعة أنباء الكفاح الوطنى فى الهند ٠٠

وتنتهى الحرب ، وتنال الهند إستقلالها ٠٠

وتعلم « تارا » يوما أن أول وفد يمثل الهند المستقلة سيصل الى أمريكا قريبا ليحضر أول دورة لهيئة الأمم المتحدة ، وان على رأس هذا الوفد أمها ٠٠٠ السيدة فيجايا لاكشيمى !!

انها الآن فى قمة سعادتها ٠٠ لا تملك نفسها من الزهو ، وهى ترى أمها تتنقل فى هذا المحفل الدولى ، وتصول وتجول بين أقطاب السياسة الدولية مثل فيشنسكى وغيرهما ٠٠ وهى تسجل ملاحظات سريعة طريفة على رؤساء الوفود ٠٠ بيفن ضيق الصدر بقواعد الاتيكيت التى لا يعرفها جيدا ٠٠ وفيشنسكى بعيونه الزرقاء التى تنطق ذكاء وابنته الطالبة فى جامعة موسكو ٠٠ والأمير فيصل بثيابه الفضفاضة ، يغض طرفه كلما مرت به امرأة ٠٠ حتى ولو كانت أمها ! ٠٠ واسم خالها نهرو يتردد على كل لسان ، ولا أحد بعد يجهل الهند !!

الآن ، تعود تارا الى بلادها ، تعود وقد أصبحت الهند بلدا مستقلا ، وأصبح خالها الطيب الذى كان يلعب معها فى الحديقة رئيسا للوزارة ٠٠ وعندما وصلت « تارا » الى البيت الكبير ، كان خالها فى الحمام يستعد للذهاب الى حفلة رسمية ، فذهبت وجلست تنتظره فى حجرة نومه ٠٠ فلما عاد ورآها قفزت اليه وتعلقت بعنقه تقبله ، وهو يدور بها فى وسط الحجرة ٠٠

ولــكن ·· ان وجهه يحمل من التعب والجهــد والضنى أكثر مما كان يحمل فى أحرج أوقات الجهاد ، فلابد أن مسئولية الحكم أشق من مسئولية الـكفاح ··

ومضت تهيىء نفسها لــكى تعيش مع خالها ، ومن أجل خالها ··

لقد اكتشف نهرو الهند خلال رحلاته وقراءاته واختلاطه بالملايين ، أما هى فقد أحبت الهند من خلاله ··

لقد قررت أن تجعل رسالتها أن تهيىء لنهرو بيتا مريحا ، بعد أن ماتت زوجتــه وتزوجت ابنته ، وبعد أن لاحظت قدرته الغريبــة على العمــل ، واحتقاره للراحة ، وعقله المشغول دائمــا بالخطط الواسعة والمشروعات ، وأهماله المقام لمطالبه الشخصية ·· انه الرجل الذى تنطبق عليه حكمة جالاهاو « اننى أعمل كعشرة رجال ·· لأننى صافى القلب ! » ··

انه لا يحكم بروح رئيس الوزارة ·· ولــكن بروح الفنــان المستغرق فى اتمام لوحة خالدة ! ··

هكذا تمضى خواطرها عن خالها وهى تراه ينهض بهذا العبء الـكبير ··

وهى لا تكاد تبادله كلمة واحدة ·· لأن برنامجه لا يخلو دقيقة واحدة من الزوار أو اللجان أو التقارير ·· انه يعمل حتى فى الفراش ، حتى على مائدة الطعام ، بينما تكتفى هى بالتهام طعامها فى المطبخ ··

وفى احدى الليالى أصابها أرق جعلها تسهر فى فراشها حتى ســاعة متأخرة من الليل · ورأى خالها النور مضاء وهو عائد الى فراشه فمر بها ·

قال لها وهو يجلس بجوار فراشها :

ـ ها نحن فى بيت واحد ·· ولا أراك الا نادرا ··

قالها فى صــوت متعب ،ثم استطرد : ما أكثر الـكلام الذى أريد أن أقوله لك . ولــكن ان المسائل الشخصية كلها يجب أن تنتظر ··

ثم قال لها باسما كأنه يقترح نزهة : تعالى معى غدا نزور بابو ..

وبابو هو اللقب الذى كان ينادى به غاندى ..

وقد كانت رؤية غاندى هى راحة نهرو الحقيقية .. هى خلاصة من كل مشاكله المعقدة !! ..

وذهبت تارا مع خالها الى زيارة غاندى ، فأحست بالراحة فعلا ، ففى الدوامة المحمومة التى كانت تعيش فيها الهند عقب الاستقلال ، ظل غاندى هو العقل الهادىء والقلب المستريح .. ليس حوله سوى الأغانى والصلوات والهدوء !! ..

ان غاندى لا يتكلم ، ولا تشعر بأنه يريد أن يقنعك بشىء ، انه فقط يفكر أمامك بصوت مسموع ..

أما فلسفته التى أوصاها بها حتى النهاية ، فهى : لا تسلكى الى الهدف السليم .. الا الطريق السليم ..

وبعد أيام اغتال أحد المهووسين غاندى ..

وكتبت « تارا » تقول : سيظل الناس الى الأبد عاجزين عن ايجاد سبب معقول لصلب المسيح أو اعدام سقراط ، أو اغتيال غاندى !!





الجمهورية
١٠ مليمات
مليون
قارئ
يعتبرون
الجمهورية
جزءاً من حياتهم اليومية

صديقي أينشتين

مؤلف هذا الكتاب ـ فيليبفرانك ـ ليس أديبا فقط ، ولكنا عالم أيضا ... وهو عالم فى نفس الفرع الذى تخصص فيـــه اينشتين ، وقد توثقت بينهما روابط صداقة وطيدة دامت أكثر من ثلاثين سنة ، عاشا خلالها فى أحداث وأبحاث واحدة ..

والكتاب فى حجمه الأصلى يزيد على الخمسمائة صفحة .. وقد صدر قبل وفاة اينشتين بسنة واحدة ..

وقد بدأ المؤلف كتابه متحدثا عن حياة اينشتين فى أواخر أيامه فقـــال :

يسكن اينشتين بيتا خشبيا بسيطا يقع فى حديقة مجاورة لجامعـــة برنستون الشهيرة ، بالقرب من نيويورك .

وفى نهاية سلم ضيق ، بالطابق الأول يلقاك البرت اينشتـــين مرتديا صندلا وبنطلونا وقميصا .. أما مكتبه فعبارة عن مائدة عمل ، ومقعدين وثيرين ، ورفوف عليها مذكرات وكتب ، وآلة كمان ، وعلى الحائط صورتان لفاراداى وماكسويل ، وعلى المائدة أوراق صغيرة متناثرة مليئة بمعـــادلات وأرقام حسابية ، مكتوبة بخط دقيق جدا ، فهذه الأوراق تضم الكثير من أسرار الـــكون ..!!

وبالنسبة لسكان برنستون ، كما هو الشأن بالنسبة لسكان العالم أجمع، يعد البرت اينشتين من الشخصيات الأسطورية فى القرن العشرين ، فهنا تروى قصص كثيرة عنه .. هذه واحدة من جاراته ، لها ابنة فى العاشرة من عمرها ، لاحظت يوما أن ابنتها تذهب كثيرا الى اينشتين فى بيته وتمكث عنده طويلا .. وسألتها أمها فى ذلك فقالت « اننى أجد صعوبة فى حـــل

واجباتي المدرسية فى الحساب ، وقد سمعت أن الرجل الذى يسكن البيت رقم ١١٢ يعرف الحساب جيدا ، فذهبت اليه أطلب منه مساعدتى ، وقد رحب بى كثيرا وشرح لى كل شىء ، وفهمت منه بوضوح وسهولة أكثر مما أفهم عن مدرستى فى الفصل بكثير ، وقد طلب منى أن أذهب اليه كلما احتجت الى شىء !!» •• وأسرعت الأم الى العالم الكبير تعتذر عن وقاحة ابنتها فأجابها : لاداعى لهذا الاعتذار ياسيدتى •• فأنا أستفيد من الشرح لها أكثر مما تستفيده هى منى !!

وحين كان اينشتين فى الثانية من عمره ، لم يكن قد نطق بالكلام بعد ، وظن أبواه أن ابنهما سيكون شاذا ناقصا ، فلما نطق بأول كلماته فرحت العائلة بذلك فرحا شديدا ، وكان أبوه يدير مصنعا كهربائيا صغيرا فى ميونيخ ، بافاريا ••

أما أم اينشتين فقد كانت موسيقية بارعة • وكان يقيم مع الأسرة واحد من أخوة اينشتين ، يختص بالاشراف على الجانب الفنى فى مصنع أبيه ، ومنه تلقى اينشتين أول دروسه فى الرياضة ، وكان طفلا هادئا ليس فيه شقاوة الأطفال أو ميلهم الى اللعب والجرى والنط •• وكانت لعبة « العسكر » التى يلعبها أقرانه تسبب له الفزع • وحدث يوما أن كان يقف مع أبيه يتفرج على استعراض عسكرى تتقدمه الموسيقى ، اذ صرخ باكيا فجأة : الرجال المساكين ! لن أفعل مثلهم أبدا حين أصبح كبيرا !

وفى التاسعة من عمره كان طفلا حالما ، جبانا ، لايكذب أبدا ، وكان مشهورا بدقته فى رواية مايقع أمامه بلا أى تحريف ، وفى العاشرة من عمره دخل مدرسة لويتيون فى ميونيخ حيث أغرقوه فى طوفان من القواعد اللاتينية واليونانية ، وأينشتين مدين لذكاء أحد أساتذته ، الأستاذ رويس ، فانه لم يكره بالرغم من ذلك الثقافة القديمة ، وكان التلاميذ الذين يحصلون على درجات منخفضة يوضعون بعد انتهاء الدراسة فى حصص اضافية تحت اشراف أحد المدرسين كعقاب لهم ، ولكن أينشتين كان يفرح جدا حين يعاقب لأن الاستاذ المشرف على التلاميذ المعاقبين هو •• رويس •

وبعد سنوات طويلة ، حين أصبح اينشتين أستاذا فى زيوريخ ، قرر أن يذهب لزيارة أستاذه القديم ، وأخذ يتخيل ماسيكون من فرح أستاذه به حين يرى تلميذه قد أصبح أستاذا فى الجامعة ‥ ولكنه حين ذهب اليه ،فى ثيابه المهملة كعادته ، لم يعرفه أستاذه قط ، وحسبه طالبا فقيرا جاء يطلب مساعدة مالية ، فكان ذلك صدمة لأينشتين حتى أنه فر من وجهه هاربا دون أن يوضح الأمر له أو يقول شيئا ‥

وفى سن الثانية عشرة ، تلقى أول قبس من العلم ‥ حين بدأ يقرأ كتابا موجزا فى الهندسة ، فلم يكد يفتحه حتى أصبح لايقوى على مفارقته ‥‥ ولكن حادثا مفاجئا بعد ذلك بسنوات ثلاث ، أثر فى حياته وغير مجراها ، فقد قرر أبوه تصفية مصنعه فى ميونيخ والبحث عن الثروة فى مكان آخر ، وسافر الى ميلان لتأسيس مصنع للمنتجات الكيمائية تاركا ابنه فى ميونيخ حتى يتم دراسته ٠ وكان الصبى متفوقا على زملائه فى الرياضة تفوقا بعيدا وان ظل متخلفا بعض الشىء فى اللغات القديمة ٠

وكانت أشهر مدرسة علمية خارج المانيا هى مدرسة بوليتكنيكوم فى زيوريخ وسافر اينشتين الى زيوريخ وتقدم لامتحان القبول ، فأحرزدرجات فى الرياضة أذهلت الممتحنين ، ولكنه رسب فى اللغات رسوبا شنيعا ‥ واحتار عميد المعهد : هو لايستطيع قبول الفتى الراسب فى اللغات ، وهو لايريد أن يفرط فيه بعد أن رأى عبقريته المبكرة ، فأشار عليه أن يلتحق سنة بمدرسة صغيرة فى زيوريخ ويحصل على شهادتها فيدخل المعهد بغير امتحان ، وفى السنة التالية دخل اينشتين المعهد العتيد ٠

وكان المعهد لما يتمتع به من شهرة دولية ، يضم بين جدرانه شبابا من جميع الجنسيات ، وبين طلبته الأجانب كانت فتاة هنجارية اسمها « ميلفا ماريتشى » لاتهتم الا بدراسة العلوم الطبيعية ‥ وبلغ اينشتين الحـادية والعشرين وحصل على الجنسية السويسرية ، وكانوا يعطون الممتازين حوالى ٣٠٠٠ فرنك فى الشهر ، وهو مبلغ كان كافيا فى ذلك الوقت لكى يعيش بلا هموم ، بل لقد فكر فى أن يتزوج ويبنى أسرة ‥ وبعد وصوله الى برن بقليل خطب زميلته ميلفا ماريتشى‥كانت أكبر منه بقليل ، ولكن اينشتين

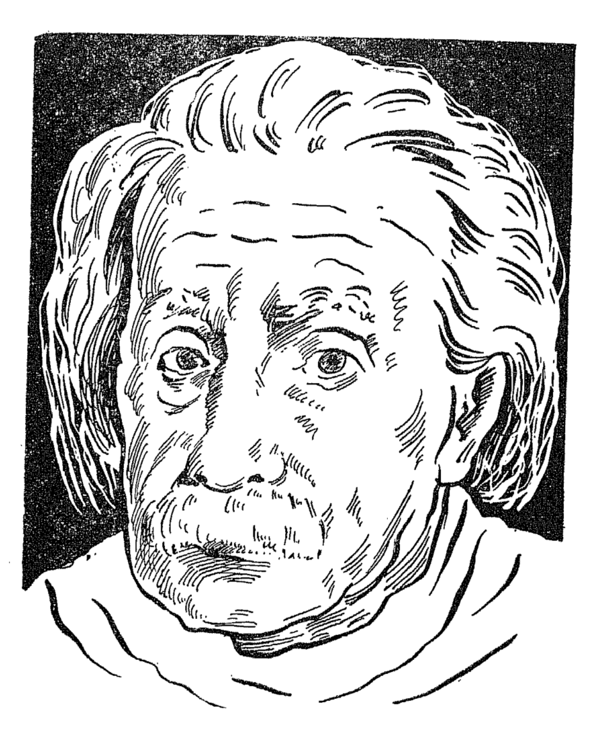
لم يكن يستطيع أن يشغل بالحب ذهنه الخلاق ‥ وقد استفاد منها اذ نظمت له تيار أفكاره المهوشة ، وأنجبت له طفلين ، والأطفال مصدر متعة عظيمة لأينشتاين ٠

وعلى العكس من معظم العلماء والمخترعين الذين يقضون فراغهم فى لعب الشطرنج أو قراءة الروايات البوليسية ، نرى أينشتين يقضى فراغـه فى أختراع صنوف من الأدوات والآلات العجيبة لأستعمالها فى شئون الحياة اليوميـــة ٠

وفى كل حياته ، ظل اينشتين معتصما بوحدته ‥ لايغادرها الا ليقابل من الأصدقاء من يستطيع أن يعزف لهم الموسيقى أويتناقش معهم حول آرائه فى الـكون ، وشخصيته البسيطة الجذابة ، السمحة ، طالما اجتذبت اليه الأصدقاء والناس ، ولكن اعتزازه بوحدته صد عنه الذين لم يفهموا هذه الوحـــــدة ٠

وهو يقول : « ان الفوائد التى تعود على من الاحتكاك بالناس والمسئوليات الاجتماعية ، تتعارض دائما مع رغبتى العميقة فى تجنب كل اختلاط أكثر مما يجب بالناس الذين أصادفهم ، لقد خلقت لكى أكون وحيداً ، لا أرتبط بفريق خاص أو جماعة بعينها ، اننى فى الحقيقة لست تابعا لدولة أو شعب أو صديق معين ، بل ولا حتى لعائلتى ، ان هذه الروابط تتعارض دائمـــا مع رغبة كامنة فى الانطواء على نفسى ، تنمو مع الأيام ، وهذه الوحدة قاسية ولاشك ولا أستطيع أن أعتذر عن اقتطاع نفسى من مجتمع الناس والأصدقاء وفى مقـــابل ذلك ، فاننى غـــير مرتبط بأى حكم ســـابق ، أو أى أفكار أو عادات للآخرين ، ولا أقامر أبدا بأن أبنى سعادة روحى على أسس متغيرة »

ومع أنه لم يعرف عن اينشتين أبدا أنه بذل أى مجهود ليدعو لأفكاره بين الناس ، فانه يجب أن ينشر رأيه بين المحيطين به ، والذين يتصل بهم ، وفى « برن » كان أهم صديق له مهندسا ايطاليا اسمه « بسو » كان أكبر منه فى السن قليلا ، كانت له روح ناقدة ذكية وحساسية شديدة ٠ وكانت انتقاداته لآراء اينشتين كلها خالقة منتجة ، ومن أقواله التى مايزال اينشتين يرددها : « اذا كانت فكرتك جميلة كالزهرة ، فلابد أن تنتشر لها رائحة »



اينشـــتين

وهنا يصل المؤلف الى المرحلة التى تعرف فيها الى اينشتين :

لم أكن أعرف الأهمية الخطيرة التى تنطوى عليها نظرية اينشـــتين فى النسبية قبل سنة ١٩١٢ ، حين قرأت فى جريدة نمساوية مقالا تحت عنوان « الدقيقة فى خطر . حدث فى العلوم الرياضية » .. وشرح لنا أســـتاذ الطبيعة حينئذ كيف أن عالما طبيعيا اسمه أينشتين أثبت بطريقة رياضية لم يسبق لها مثيل أن الوقت يمكن أن يقصر ويطول ، أن ينكمش ويمتد ، وأنه يمضى فى فترات معينة أسرع منه فى فترات أخرى . وأن هذه الفكرة قد قلبت كل أفكارنا عن الروابط بين الانسان والكون .. فحتى تلك اللحظة كان الناس يولدون ويموتون ، والأجيال تتعاقب ، وبقى الزمن جامدا لايتزحزح ، أما الآن فكل شىء قد تغير ، فالزمن نفسه يمكن أن يعدل وكل ذلك بطريقة رياضية بسيطة .

وفى كلمات بسيطة دعا أينشتين الى أن لانقيس الزمن الذى يستغرقه الحدث بالطريقة القديمة « الزمن الحقيقى الذى يستغرقه الحدث هو الـــذى تسجله ساعة دقيقة مرتبطة بطريقة ما بالحدث الذى يحدث نفسه ، وكـل زمن آخر غير ذلك خداع » .

بهذا جمع اينشتين بين المكان والزمان فى صيغة واحدة ..

كما وحد بعد ذلك بين الكتلة والطاقة ..

ثم اكتشف نظرية جديدة للجاذبية تتعارض مع نظـــرية نيوتن التى تعلمناها جميعا فى المدارس .

وكان للأبحاث التى نشر اينشتين نتائجها فى برن دوى شديد فى أنحاء العالم ، فلم يلبث أن عين بعدها فورا أستاذا فى جامعة زيوريخ ، ولـــكن مركز هذا الأستاذ من الناحية المالية لم يكن مريحا ، فاضطرت زوجته الى أن تدير جزءا من بيتها « بنسيونا » للنزلاء !

وفى خريف ١٩١٠ ، شغر كرسى أستاذ الطبيعة النظرية فى جامعة براغ فأسرعت الحكومة الألمانية تعرض الكرسى الشاغر عليه .. ووصل أينشتين

الى براغ ، وقال الذين شاهدوه فى ذلك الوقت أن هيئته كانت أقرب الى هيئة مغنى أوبرا ايطالى منها الى هيئة أستاذ ألمانى ٠٠ وكان صيته وشهرته الهائلة بأنه عالم طبيعى غير عادى قد سبقته ٠٠ وأصبح كل شخص على أحر من الجمر لرؤية هذا الانسان النادر ٠

وقد عينت فى كرسى اينشتين حين ترك براغ بعد ذلك، ورحيله عن براغ يرتبط فى ذاكرتى بحادثة طريفة ٠ فقد كان على الأستاذ الجامعى فى النمسا فى ذلك الوقت أن يلبس بذلة شبه عسكرية : قبعة مثلثة الأركان مزينــة بالريش المرتفع وسترة مزركشة وبنطلونا محلى بضفائر مذهبة ، وعبــاءة فضفاضة ، وسيفا !٠٠ وقد اضطر أينشتين لشراء هذه البذلة حين عين فى براغ ٠٠ فلما انتهت مدته وقررالعودة الى سويسرا ، اشتريت أنا منه هذه البذلة حتى لاأتجشم ثمن بذلة جديدة ، وهى لن تنفعه بعد ذلك ، وكان ابنه الصغير ــ فى الثامنة من عمره ــ حاضرا هذه الصفقة ، فصاح فى أبيه يريد أن يحتفظ بالبذلة ليسير بها أبوه فى شوارع زيوريخ ويراه الجيران ٠٠٠ وضحك أينشتين وقال : انهم سيقولون عنى حينئذ أننى أميرال من البرازيل مثــــــلا !!

وكان صيت اينشتين قد ذاع حتى أصبحت الهيئات العلمية تتنافس فى الظفر به ، وكان منها حكومة المانيا التى طلبته لكى ينظم الأبحاث العلمية فى برلين بصفته أستاذا فى جامعتها ، وبعد فترة من وصوله الى برلين انفصل عن أسرته وعاش فى مسكن بمفرده ، كانت سنه حينئذ ٣٤ سنة ٠٠ أصغر من كل زملائه الأساتذة ٠٠٠

وقد تعودنا أن نرى العلماء دائما مشغولين لا وقت لديهم ، ولــــكن اينشتين على العكس من ذلك كان يجد دائما الفراغ الطويل !!٠٠وقد قابلته فى برلين ــ وكنت أعمــــل فيهــــا بدورى ــ وكنت أريد أن أذهب الى « الابسرفاتوار » ولم أكن قد عرفت برلين جيدا بعد ، فاقترح على أن يقابلنى على جسر بوتسدام ليوصلنى الى هناك ٠٠ واستكثرت أن يقف هذا العالم الكبير على الجسر ينتظرنى ثم يسير معى مسافة طويلة ليوصلنى ، وقلت له اننى أخشى أن أضيع له وقته ، فقال : « ان مهمتى هى التفكير ٠٠ ومالفرق بين التفكير فى البيت والتفكير على جسر بوتسدام ؟ » ٠

حقا ٠٠ ان أفكاره تنثال دائما كالمجرى الذى لاينقطع،فاذا قاطعته بحديث أو حوار ، فكما تلقى حجرا صغيرا فى مجرى النهر ، قد تحدث منه حلقات صغيرة ، ولكنه لايعطل جريان النهر لحظة واحدة ، وروحه تدفعه عادة الى عمل شاق لاينقطع بشكل قد لاتتحمله صحته فى بعض الأحيان ٠

وقد ظل أقاربه الأكثر غنى يعتبرونه كالشاة الضالة عن القطيع ، حتى أجرى له استقبال رسمى فى الأكاديمية البروسية ببرلين ، ورأوا كيف أحيط فى ذلك اليوم بكل علامات الاحترام ٠٠ فأصبحوا من تلك اللحظة يفخرون بقرابته لهم ولا يجدون غضاضة فى استقباله عندهم ، بالرغم من فقره وغناهم !٠٠ وقد استقبل هذا الوضع بروح مرحة طيبة ٠٠ وعند أحد أعمامه قابل قريبته « ألزا » التى عرفها فى ميونيخ طفلة ، كانت أرملة ولها ولدان ٠٠ وكانت امرأة بارعة تخلق حولها جوا جميلا وتقدم طعاما ممتازا وان لم تكن لتستطيع أن تفهم ــ مثل ميلفا الزوجة السابقة ــ أهمية هــذا العالم الطبيعى ٠٠ كذلك كانت لها روح مرحة لاجافةصلبة مثل تلكالتلميذة السلافية ٠٠ وقد أعجبها أينشتين على أى حال ٠٠ لأنه كان شهيرا !!

وذات يوم خلال الحرب العالمية الأولى ، دعانى اينشتين الى تناول الغداء عند عمه ، وهناك رأيت الزا لأول مرة ٠٠ وقد قالت لى يومها بين الجــد والهزل : « اننى أعرف أن صغيرنا البرت عالم عظيم ٠٠ فان كل الصناديق التى ليست لدينا مفاتيح لفتحها ، يفتحها اينشتين بسهولة تامة !! » ٠

وقبل انتهاء الحرب تزوج اينشتين من الزا ٠٠ فهذا الذى عاش دائمــا عيشة بوهيمية بدأ يعيش عيشة بورجوازية رتيبة ٠٠ وقد احتفظت الزا مع اينشتين بكل عاداتها الموروثة عن « السواب » موطنها الأصلى ٠ فهى تهتم اهتماما زائدا بأن تصنع لحياتها اطاراً ثابتا ٠٠ ولكن زوجة الرجل الشهير لايقف أمرها عادة عند المظهر ، وكل من اتصل باينشتين لم يستطع الا أن يحكم على الزا بقسوة ، ففى بيئات العلماء ببرلين كان الجميع يقولون انهــا ليست المرأة الجديرة باينشتين (ترى لو فكر اينشتين كما فكروا فأى امرأة اذن كان يمكن أن يتزوجها ؟) ،وأكد البعض أنهاتحيط زوجها بسورلايقتحم وقال علماء آخرون انها تفضل أن يكون أصدقاؤه منالمؤلفين والفنانينورجال السياسة ، لأنها أكثر اتفاقا معهم ، ويسهل عليها مصادقتهم ٠

وقد حدث أن اعترضت بعض الأندية النسوية فى أمريكا سنة ١٩٣٢ على دخول اينشتين أمريكا بحجة انه على صلة ببعض المبادىء « الهدامة » فقال لمراسل الاسوشيتدبرس ساخرا : لماذا يكرهون هنا رجلا يريد أن يمنع من العالم كل أنواع الحروب ٠٠ ما عدا الحرب بين الرجل وزوجته ؟

فهذه الكلمة تدلنا على شيئين فيه ٠٠ مبادئه الانسانية الواسعة ، وعدم سعادته فى الحياة الزوجية ٠

ومن تعليقاته اللاذعة التى تدل على قسوة تجربته « حين أكون فى البيت تكون زوجتى مشغولة بقطع الأثاث التى لديها ، وحين أخرج معها للنزهة أصبح أنا قطعة الأثاث الوحيدة تحت يدها ! »

* * *

كانت لاكتشافات اينشتين أهمية غمرت العالم أجمع ، وقد اهتم بها علماء الفلك اهتماما خاصا ٠

ولكن لم يكن من سبيل للتحقيق من صحة نظرياته بدون حدوث كسوف كلي للشمس لقياس درجة معينة من انحراف أشعة الضوء ، تنبأ بها أينشتين ٠٠٠ وحدثت مصادفة رائعة اذ تبين علماء الفلك أن كسوفا كليا للشمس على وشك الحدوث ٠

ونظم المعهد الملكى للعلوم الفلكية فى لندن بعثتين للتحقق من نظرية اينشتين فلما أمضيت الهدنة فى سنة ١٩١٨ شرعت البعثتان فى العمل فورا وكان ذلك باشراف سير أرثر اديز ادينجتون ، أحد القلائل الذين يفهمون نظرية النسبية ٠

وأرسل المعهد بعثتين الى نقطتين متباعدتين من الكرة الأرضية ٠٠ واحدة فى جنوب البرازيل والثانية برئاسة أدينجتون نفسه فى احدى جزر غينيا وحين وصلت البعثة الأولى الى البرازيل قوبلت مقابلة عدائية غريبة !! وكتبت أكبر جرائدها تقول « بدلا من أن تتعب البعثة نفسها فى اثبات نظرية سخيفة لعالم ألمانى ٠٠ أليس الأجدر بها أن تبحث عن طريقة لاسقاط

الأمطار عندنا ، ونحن نشكو الجفاف بهذا الشكل ؟ » • وكان الشعب يشكو الجفاف حقا ، وكان حظ البعثة حسنا ، اذ أمطرت السماء بعد وصولها بأيام!

ومضت شهور قبل أن تعود البعثتان الى لندن وتخرج الصور التى أخذتها فى المعامل بدقة متناهية تلافيا لأى خطأ محتمل • وفى ٧ نوفمبر ١٩١٩ وكانت لندن تحتفل بعيد الهدنة الأول ، خرجت التيمس تحمل فى صدرها عناوين « الشهداء الأبطال ، احتفالات الهدنة ، توقف المواصلات فى جميع أنحاء البلاد » وفى صفحاتها التالية حملت عناوين « ثورة فى العلم ، نظريات نيوتن تنقلب رأسا على عقب ! » • وتحتها تفاصيل اجتماع المعهد الملكى الذى أعلنت فيه رسميا نتائج الأبحاث • وأعلن المعهد أن بعثتيه اللتين سافرتا الى البرازيل وعنيتا بملاحظة الخسوف الشمسى خرجتا من مشاهداتهما وأبحاثهما بأن الأشعة الضوئية منحرفة فى نطاق جاذبية الشمس وفقا لنفس النسبة التى قررها اينشتين فى نظريته عن الجاذبية •

وقد رأيت اينشتين بعد ذلك سنة ١٩٢١ فى براج •• كان قد تغير قليلا وان بقى شديد الشبه بعازف الموسيقى البسيط • وكنت قد تزوجت ، ونظرا لأزمة المساكن اضطررت أن أقيم أنا وزوجتى فى نفس المعمل حيث كنت أجرى أبحاثى •• وهو أيضا نفس المكان الذى كان فيه مكتب اينشتين حين كان أستاذا ، وقد اضطر مرة الى أن يقضى الليلة عندى ، نائما على مقعد طويل ، ليتجنب فضول الناس وتجمعهم حوله فى طريقه الى الفندق الذى كان نازلا فيه ••

وبعد ذلك بقليل سافر الى أمريكا للمرة الأولى ليلقى المحاضرات ، وكان وصوله الى نيويورك نذيراً باستقبالات هائلة ، ومظاهر من الحماسة زائدة •

وتجمع حوله الصحفيون والمصورون ، وسأله واحد منهم « كيف يمكن أن تلخص فى سطور قليلة نظريتك فى النسبية ؟ »

وسكت اينشتين برهة ثم قال :

ـ أستطيع أن أقول لك اننا كنا نظن انه اذا حدث واختفت المادة من الكون كله فسوف يبقى بعد ذلك الفراغ والزمن •• ولكنه وفقا لنظرية النسبية فان الفراغ والزمن سيختفيان بدورهما •

واستدار الصحفيون الى زوجته يسألونها هل فهمت شيئا ؟

فقـــــالت :

ـ أوه ٠٠ كلا ٠٠ انه لم يشرحها أبدا ٠٠ ولكن أظنني سعيدة هـكذا بدون أن أفهمها !

وقد سألت اينشتين عن حقيقة شعوره آزاء كل مظاهر الحماســـة التى أحيط بها ٠٠٠ فقال :

ـ اننى لم أكتشف بعد أشياء غير عادية ٠٠ وأظن أن أى بطل من أبطال الملاكمة يحظى من الجماهير بأكثر من هذه الحماسة !٠٠

ولـمـا عاد اينشتين الى أوروبا ، لفحته موجة الاضطهاد التى شنها النازيون فى الجامعات الألمـانية ، اذ بدأوا يطردون الأساتذة والعلماء بالجملة لأسباب عنصـــرية !

وتسابقت اليه الجامعات كل منها تدعوه اليها ، وتسخو فى الاغراء ، ولـكنه كان قد قرر أن يترك أوروبا ٠٠ تلك القارة المضطربة المشتعلة كلها ، ويقبل وظيفة أستاذ فى جامعة برنستون بجوار نيويورك ، وانصرف يعمل فى هدوء ٠٠

وعرف العالم القنبلة الذرية ٠٠٠

وعاد اسم اينشتين وصوره تشغل الصفحات الأولى من الجرائد ،وأصبحت النتائج التى ترتبت على نظرية النسبية التى أعلنها سنة ١٩٠٥ فى الصلة بين المادة والطاقة حديث الناس جميعـــا ٠٠ حتى قيض له أن يلعب دورا ايجابيا من أخطر الأدوار فى تاريخ الانسانية ٠٠

ففى سنة ١٩٣٩ ، بعد أبحاث خطيرة قام بها جوليو كورى الفرنسى وهان وليز الألمانيان بدأت الأفواه تتناقل اسم قنبلة ذرية يمكن صنعها ٠٠ وكانت

ألمانيا بالذات ـ فى اعدادها للسيطرة على العالم ـ تبذل جهودا جبارة للوصول الى صنعها ٠٠ وفى الولايات المتحدة حاول اثنان من علماء جامعة كولومبيا أن يحركا روزفلت ورجال القيادة الأمريكية الى صنع هذه القنبلة ٠٠ وكانا يؤكدان فى الحاحهما أن هتلر لو عرف سر القنبلة الذرية أولا ، فسوف تكون هذه نهاية الحرية ٠٠

وعبثا حاول الرجلان ٠٠ فماذا يصنعان بعد ؟٠٠ لابد من ايجاد رجل له من الشهرة والسمعة والقوة ما يجعل لطلبه صنع هذه القنبلة قيمة كبرى لايمكن تجاهله ٠٠ وقابلا اينشتين ٠٠ وشرحا له خطورة وجود هذه القنبلة بين أيدى النازيين ، وكان قد جرب النازيين من قبل ٠٠

* * *

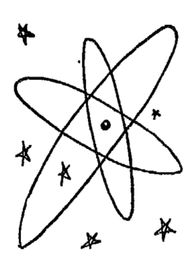
وفى ابريل ١٩٣٩ ، كتب اينشتين رسالة تاريخية الى روزفلت :

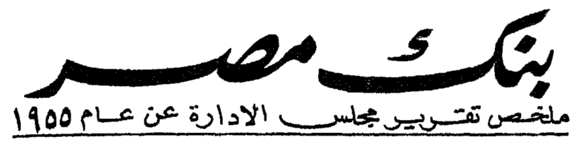
« ٠٠ ان الأبحاث التى قام بها جوليو كورى فى فرنسا ومزحى وسزيالارد فى الولايات المتحدة تجعلنى أعتقد أن مادة اليورانيوم سوف تكون ذات أهمية عظمى فى المستقبل كمصدر للطاقة ، وأعتقد أنه من واجبى أن ألفت نظركم الى ذلك ٠٠ والى أن مصادر هذه المادة فى الولايات المتحدة ضعيفة جدا ، على حين هى موجودة بكثرة فى كندا وتشيكوسلوفاكيا ٠٠ وقد علمنا أن هتـــلر يبذل جهودا هائلة للحصول عليها ، وهو يقوم فى هذا السبيل بتجارب سرية خطيرة ، وأن ميزانيات الجامعات الأمريكية لأفقر من أن تقوم بمثل هـــذا العمل ، فعلى ميزانية الدولة أن تساهم ، وسوف يمكن حينئذ صنع قنبلة تحسم الأمر ، ان قنبلة واحدة من هذا النوع تحملها سفينة الى ميناء ما كافية لتدمير المدينة وماحولها من مدن تدميرا شاملا ، يمنع الحياة فيها لأمـــد طـــويل » ٠

وبغير اسم اينشتين ، الممهور فى نهاية الرسالة ، لم يكن روزفلت ليوافق على اعتمادات مليارات الدولارات للأبحاث الذرية ٠

وهكذا غيرت نظرية أينشتين ، ليس فقط الأبحاث العلمية ، بل والاستراتيجية السياسية والعسكرية فى العالم أجمع كما أثر فى تاريخها تأثيرا خطيرا ٠

غير أنه لما وجد القنبلة الذرية ـ وقد أفلحت مع اليابان مرة ـ أصبحت تغرى الساسةوالعسكريين بالعدوان ٠٠ وقف فى الصف الأول معالمطالبين بتحريمها وصرف البحوث الذرية الى الانتاج السلمى ٠٠محذراً ومنذرا البشر أجمعين من هول ماينتظرهم لو تركوا لشهواتهم العنان ٠٠





ملخص تقرير مجلس الادارة عن عام ١٩٥٥

السادة المساهمون :

يتشرف مجلس ادارة بنك مصر بأن يعرض على سيادتكم ميزانية البنك وحساب الأرباح والخسائر عن السنة المنتهية فى ٣١ ديسمبر ١٩٥٥ ومنها يتبين الآتى :

رأس المال :

زاد رأس المال بمقدار مليون جنيه مصرى « اكتتب فيه بالكامل » وذلك حسب قرار الجمعية العامة غير العادية بجلسة ٥ فبراير سنة ١٩٥٥ فاصبح رأس المال مليونين من الجنيهات

الودائع :

زادت الودائع والحسابات الدائنة هذا العام بما يقرب من خمسة ملايين جنيه ـ اذ بلغت حوالى ٧١ مليونا مقابل ٦٦ مليونا فى العام الماضى .

التسليف :

نشطت عمليات التسليف بتأمين أوراق تجارية ومالية وضمانات متنوعة فبلغت حوالى ١٧ مليون جنيه مقابل ١٤ مليون فى العام الماضى أى بزيادة حوالى ٣ ملايين جنيه ، كما زادت عمليات الخصم فبلغت خمسة ملايين جنيه مقابل أربعة ملايين ونصف فى هذا العام الماضى .

أما عمليات (التسليف على أقطان وبضائع) فقد نقصت عن العام الماضى حوالى ٪ ٩ مليون جنيه اذ بلغ رصيدها ٪ ٢٠ مليون مقابل ٣٠ جنيه فى العام الماضى وهذا النقص يرجع الى سرعة تصفية الأقطان نظرا لزيادة الطلب عليها وتصديرها للخارج .

الأرباح

بلغ اجمالى الأرباح هذا العام ٢٤٢٩٦٦٧ جنيها مقابل ٢١٢٣٤٦٤ جنيها فى العام الماضى وبلغت المصروفات ١٦١٧٦٩٦ جنيها مقابل ١٣٢٧٠٥٠ جنيها فى العام الماضى ، اى بزيادة قدرها ٢٩٠٦٤٦ جنيها ، وذلك بسبب انشاء فروع جديدة .

وقد كفلت زيادة الأرباح زيادة المصروفات اذ بلغ صافى الربح هذا العام ٨١١٩٧١ جنيها مقابل ٧٩٦٤١٣ فى العام الماضى .

ويقترح مجلس الادارة توزيع ربح للسهم الواحد بواقع ٧٥ قرشا يصرف بدون استقطاع ضرائب .

العقاد والمرأة والشيوعية

اذا اســتمعت الى الأستاذ العقـــاد مرة يتحدث فى الراديو ، فســوف تلاحظ أنه يبدأ حديثه قائلا : حضرات السادة والسيدات ·· فهو الوحيد الذى يشذ عن قاعدة السيدات على السادة فى توجيه الخطاب ··

والأستاذ العقاد لا يقدم السادة على السيدات عفوا ، ولا عن عدم دراية بقواعد الاتيكيت !·· ولكنه يفعـل ذلك عـامدا ، لأن له رأيا معينــا فى المرأة ، يقتضى منه أن يضعها دائما فى المحل الثانى بعد الرجل ··

وقد عبر الأستاذ العقـــاد عن رأيه كاملا فى المـــرأة ، فى كتاب له عن السيدة عائشة زوجة النبى ، عنوانه « الصديقة بنت الصـديق » ختمـه بفصل عن المرأة ووضعها الاجتماعى ·· هو الذى فيه الخلاف ··

وقد أصبح الخلاف مع الأستاذ شيئا رهيبا مخيفا حقا ! ·· فقد أعلن فى حــــديث له مع مجـــلة « الرســــالة الجـــديدة » أن كل الذين يتصدرون له بالنقد أو الخلاف ·· شيوعيون ! ·· وطالب بأن لا يعاملهم الناس بوصفهم أدباء ، بل بوصفهم جواسيس رسميين ! ·· الأمر الذى لم يصل اليه مكارثى نفسه ، فى حملته على حرية الفكر واحراقه للكتب فى امريكا ·

ورأى الأستاذ العقاد فى الشيوعية من شأن الشيوعيين وحدهم ، فليس يعنينى أن أتعرض له ·

ولكن الذى يعنى مثلى هنا ·· هو تلك الهستيريا التى استولت على العقاد فأصبح يرى أن كل من يخالفه فى الرأى أو كل من يقذف محرابه بحصاة ، شيوعى ·· وان كل فكرة يرفضــها أو يعجـــز عن الايمــــان بهــــا · شيوعية !

هذه الهستيريا تذكرنى أحيانا بوزير حربية أمريكا السابق ، جيمس فورستال ، الذى فقد عقله ونقل الى مستشفى المجـــاذيب ، فكان كلمـا رأى مخلوقا أسرع يختبىء تحت السرير وهو يصيح : الجيش الاحمر ! .. فالعقاد لا يكاد يتعرض له أحد بالمناقشة حتى يسرع بالاختباء خلف ستار من السباب ويصيح : الشيوعيون !..

ألم يعلن العقاد فى هذا الحديث أيضا أن دعوة « الفن للحياة » دعـــوة شيوعية .. صدرت بها تعليمات من موسكو ! .. هـــذا بالرغم من أن الجدل حول دعوة « الفن للحياة » قد انتهى باعلان الجميع ـ صـادقين أو كاذبين ! ـ انهم يؤمنون بها ؟

ولا تعجب أيها القارىء لهذه المخاوف التى تساورنى وأنا أريد أن أناقش العقاد .. ولا تظن أننى فى مأمن حين أناقشـــه فى موضوع بعيـد عن السياسة كلها .. فالعقاد يقول فى كتابه عن عائشة ان الدعوة الى المساواة بين الرجل والمرأة دعوة شيوعية !

يقولها فى جرأة غريبة .. ويتجاهل الأمر الواقع الذى يملأ الدنيـا كلها .. من أن المرأة فى الصـين الشيوعية ، وفى الهنـد البوذية ، وفى باكستان الاسلامية ، وفى أمريكا الرأسـمالية ، قد وصـلت الى هـذه المساواة الكاملة .. فحملت السلاح وعملت فى المصنع وتولت مناصـب النيابة والوزارة والسفارة فى كثير من الحـالات ، ومن أن هيئـة الأمم المتحدة ، وهى أكبر مؤسسة دولية سياسية على الاطلاق ، قد رأسـتها فى الدورة الماضية امرأة .. هى السـيدة فيجايا لاكشـيمى منـدوبة الهنـد .

ولكن هذا الأمر الواقع كله لا يعنى شيئا . فالعقاد لا يخطىء . وعـلى العالم بأسره أن يتوقف ، وأن يستدير ، وأن يعـود الى الوراء ، وينسى ماكان من تساهله مع النساء ، حتى لا يكذب العقـاد .. ولا يتعـرض لعواقب اتهامه الخطير !..

وليست الخطورة فى مناقشة العقاد قاصرة على هذا الاتهام الذى يوزعه بسخاء ٠٠ ولكن الخطورة أيضا فى التعرض لقلمه الجبار !

لقدوصف العقاد خصومه فىذاك الحديث بكلمةواحدة هىأنهم : أوباش !

وفى كتاب « عقائد المفكرين » قال عن ناقديه أنهم : واغش !

ولعلك تذكر أيها القارىء ، أننى قدمت لك مرة نموذجا من أسلوب العقاد فى سب معارضيه ، ولعلك تذكر أن العقاد قد أنكر صدور هذا الكلام عنه ، رغم أنه فى الصحف منشور ٠٠ وكأنه وجد أن انكاره لم ينف عنه التهمة ، فحاول تبريرها ٠٠

واشهد أن ما قاله العقاد فى التبرير كان أظرف ما قرأت منذ زمن طويل ٠٠

فقد قال لمحدثه « الكتب السماوية نفسها قد تطاحنت » !٠٠ والمسيح وهو رجل السلام قال « أولاد الأفاعى » فما الفرق فى نظرك بين « أولاد الأفاعى » و « أولاد الكلب » ٠٠ لا شك أنك توافقنى على أن الكلب أنظف بكثير من الأفعى التى تزحف على الأرض ! »

ألا ترى أيها القارىء اذا ٠٠ أى مصير تعس ينتظرنى حين أناقش العقاد ؟٠٠

ولكن ٠٠ ما الحيلة وقد بدأت أنقد رأى العقاد فى المرأة قبل أن أقرأ حديثه الأخير ؟ ٠٠ وما الحيلة والعقاد ـ بعد كل شىء ـ كاتب كبير ٠٠ كرهنا منه الكثير ولكننا أيضا تعلمنا منه الكثير ٠٠ وهو رائد من الرواد الذين ساهموا فى تعبيد الطريق الأدبى منذ ثلث قرن أو يزيد ؟٠٠

سأناقش رأيه فى المرأة اذا ٠٠ وأمرى الى الله ٠٠

و ٠٠ صلوا من أجلى !٠٠

ان العقاد كاتب يجيد التحليل والتعليل اذا تعرض لرسم شخصية من شخصيات التاريخ ٠٠ ولكن موازينه تختل وتضطرب اذا انتقل من رسم الشخصية المفردة الى تصوير العـلاقات الاجتمـاعية المتشابكة ٠٠ أو اذا إنتقل من رسم خلجات الفرد الباطنة الى تحليـل سلوكه الخارجى وتفاعله مع المجتمـع ٠

هو قادر على اكتشاف « مفتاح » الصفات الشخصـية للفـرد ٠٠ أما مفاتيح البناء الاجتماعى فهى أمامه مختلطة غامضة !

هو قادر على أن يقول لنا ان هذا البطل شجاع أو جبـان ، ظريف أو سخيف ! ٠٠ ولـكنه لا يسـتطيع أن يفسر لنـا دوره ، أو أن يحكم عليه ٠٠

فى كتابه عن عائشة مثلا ، نقرأ صفحات جميلة يتحدث فيها عن رأيه فى تحليل أبطال التاريخ ٠٠ يقول فيها :

« ان الغرض الأول من سـير العظماء ، هو توثيـق الصلة بـين الانسانية ، وبين عظمائها ٠٠ والنفـاذ الى الجانب الانسانى من كل نفس تستحق الدراسة والتنويه ٠

« نحن اذا فهمنا النبى نبيـا وكفى ٠٠ فانما وصـلنا بين ضـميره وضمائرنا ٠ بين محراب العبادة عنده ومحراب العبادة عندنا ٠ ولكننـا اذا فهمنا النبى إنسانا فقد فهمناه كله ، فهمناه على حقيقته التى تعنينـا وتعقد له أواصر القرابة فيما بينه وبيننا ، لأننا وصلنا بين الانسان فيه والانسان فينا ٠٠

والعظماء غرباء حتى يقال : هذا هو الانسان ! فاذآ هم الأقربون الذين ترضينا عظمتهم لأنهم منا ونحن منهم !٠٠ »

ثم يحدثنا عن عائشة بهذا الأسلوب ٠٠ فيقـدمها الينـا بوصـفها « مثـلا من أمثلة الأنوثة الخالدة ٠٠ الأنوثة التى نلمحها حولنا فى كل



العقـــــاد ... ناقدوه ......!!

أنثى » ٠٠ فنراها وهى زوجة جميلة صغيرة السن ٠٠ تتباهى ككل النساء بصغر سنها ، وبتفضيل الزوج لها عن غيرها من الزوجات ٠٠ ونعيش معها وهى تغار من مجرد ذكرى زوجة راحلـــة لزوجهـا ٠٠ وتشـــترك فى المؤامرات لصرف زوجها عن غيرها من النساء ٠٠ وتخرج فى احدى الليالى متخفية تراقبه خشية أن يكون ذاهبا الى غيرها من الزوجـات ، وتشـــتد منازعاتها مع ضرائرها حتى يهجرهن النبى ليالى طوالا ٠ ونسـمعها وهى تنصح كل زوجة بأن تتجمل أمام زوجها الى أقصى ما تستطيع « ان كان لك زوج ٠٠ فاستطعت أن تنتزعى مقلتيـك فتضـعيهما أحسن مما همـا فافعلى ! » ٠٠

وان كان يؤخذ على العقاد عيب فى هـــذا البـــاب ، فهو الاسراف فى التدليل ، فى بعض الأحيان ٠

فقد أراد مثلا أن يقول أن أسرة عائشة بنت أبى بكر تميزت من قـديم بالرقة والدماثة والمبالغة فى تدليل النساء وحب الزوجات ٠٠

ولا شك أنه من الاسراف أن يقال ان هناك بيتـــا بالذات ـ لا بيئـة بأسرها ـ اشتهربتدليل النساء وحب الزوجات ٠ ولكن السخيف حقا أن العقاد مضى يجمع قصصا عن حب أبناء أبى بكر وأحفاده لزوجاتهن ٠٠ حتى قال ان من هذه الذرية « ابن أبى عتيق » الصديق المعروف للشاعر الماجن عمر ابن أبى ربيعة ٠٠ وكان ابن أبى عتيق اذا سمع بوقوع جفاء بـين عمر وخليلته « الثريا » سافر اليها حتى يصلح ما بين العاشقين !٠٠

أى أن ابن أبى عتيق كان يقوم بمهمة لا داعى لأن نذكـــر اسـمها الصريح ! وان هذا دليل على أن اسرة أبى بكر كان من صفاتها المبالغـــة فى رعاية النســـاء !

ورأى العقاد فى قضية المرأة يقوم على أساس مبدئى هو : ان الرجـل والمرأة مختلفان ٠٠ « مختلفان فى وظائف الغدد ، وفى تكوين الأعضـــاء ، وفى شواغل الذوق والاحساس ٠٠ » ويستخلص من هذا الخلاف أن لـكل

منهما وظيفة .. للرجل الحياة العامة والعمل .. وللمرأة الأمومة والبيت ...

ثم يستطرد قائلا : ان الرجل أقدر من المرأة .. حتى فى الأعمال التى تفردت بها المرأة . فالمرأة منذ زمن قديم تزاول الطهى والحياكة والتجميل والولادة وندب الموتى .. ولكن .. الطاهى يفوق الطاهية ، ومبدع الأزياء يفوق مبدعتها ، والطبيب المولد مقدم على الطبيبة المولدة ، وكل ما نظمته النساء من الرثاء لا يوازن قصيدة من الرثاء الجيد فى شعر الرجال ! »

ولست أدرى ، كيف استطاع الأستاذ العقاد أن يجمع هذه الحجج المتناقضة فى صعيد واحد ؟ ..

انه تارة يقول ان أساس عدم المساواة بين الرجل والمرأة أن لكل منهما وظيفة تخصص فيها .. وتارة يقول ان أساسها تفوق الرجل على المرأة فى جميع الوظائف مما يعنى أن التخصص وهم لا وجود له .

على أن كلا الدليلين خاطىء ..

أما عن التخصص فهو أمر تمليه الظروف الاقتصادية والاجتماعية وحدها . والمرأة اختصت بالطهى والكنس وخدمة البيت لأنها كانت لا تعمل خارج البيت .. وليس لأن الطهى والكنس وخدمة البيت ، أعمال نسائية بطبيعتها ، بدليل أننا نرى المرأة القادرة لا تخدم حتى فى البيت ، وتستأجر لذلك الخدم والطهاة من الرجال . فاذا تغيرت الظروف وأصبحت المرأة تعمل كالرجل ، فسوف تنقسم خدمة البيت بين الزوجين على السواء .. ومن أصدقائى زوجان شابان ، كلاهما يعمل مدرسا فى الجامعة .. وفى البيت يقوم الزوج بجانب غسل الأوانى وتنظيف الحجرات والخروج مع الطفلة فى نزهتها اليومية ، كالزوجة سواء بسواء .

أما عن تفوق الرجل الطبيعى على المرأة فى كل شىء ، فحتى لو سلمنا به جدلا ، فانه لا يعنى حرمان المرأة من المساواة .

فلو أخذنا بمنطق التفوق هذا لكان علينا أن نحرم الكثيرين من الرجال من هذه المساواة ·· لأنهم أقل من درجة التفوق التى يرضاها الأستاذ العقـــاد ··

ولو أخذنا بمنطق التفوق هذا لحرمنا المجتمع من ثلث قدرته الانتاجيــة على الأقل · ولــكان على بلد كأمريكا مثلا أن تحرم نفسها من انتـــاج ١٩ مليون امرأة ، هو عدد النساء العاملات هناك ، لأنهــن أقل تفـــوقا من زملائهن الرجال !

ان شرط التفوق هنا لا معنى له على الاطلاق ·· لأنه شرط موجـــود بين الرجال والنساء على السواء · فكل عمل يفضل له عادة الأكثر تفوقا ، رجلا كان أو امرأة ··

ووجود الأقـــدر لا يمنـــع وجود الأقل قـــدرة ، ما دام المجتمـــع فى حاجة الى جهده أيضا ·

أما حديث العقاد عن الحياة البيتية التى يجب أن تفرغ لها المرأة فهـــو كلام قديم ، ومعاد ، والرد عليه سهل يسير ·

ان واجب المرأة فى البيت أن تجعله فى مستوى أحســن والارتفـــاع بمستواه لا يكون بالتفرغ النفسى وحده ، بل بالمستوى المادى أيضـــا · فاذا كان عمل الزوجة الى جانب الزوج ، ومساواتها له يجعل دخل البيت عشرين جنيهـــا بدلا من عشرة ، فمعنى ذلك أن عملها هـــذا سوف يحسن مستوى البيت وسوف يهيىء لها أداء واجبها نحوه بطريقة أجدى ·

وماذا تفعل الأم لأبنائها اذا لم يكن لديها ســـوى الأمومة ؟ ·· ان الأمومة لا تغنى عن الطعام وعن الثياب ·

ويتعرض العقاد بعد ذلك لصور من المساواة بين الرجل والمـــرأة ، ينسبها الى أنصار المساواة ، ثم يشن عليها الحملات ·

يقول مثلا : ان أنصار المساواة يدعون الى حق المرأة فى تعدد الأزواج ما دام من حق الرجل تعـدد الزوجات !! ويدعون الى حرية المرأة المطلقـة فى النواحى الجنسية كالرجل سواء بسواء ٠

أى أنه ينسب الى أنصار المساواة أنهم : اباحيون ٠٠ انحلاليون ٠٠

تماما كما صنع البعض منذ خمسين سنة ، عندما نسبوا الى أحمـد لطفى السيد الالحاد والانحلال ، لأنه دعا الى الديمقراطيـة ! وقالـوا ان الديمقراطية هى اباحية الرجال للنساء والنساء للرجال !٠٠

ان أنصار المساواة هم الداعون الى تقييد الزوجات بالنسبة للرجـل ، فمن غير المعقول أن يدعو الى اباحته للمرأة ٠٠

وأنصار المساواة يطلبون للمرأة كرامة جديدة ٠ ويريدون لها الاستقلال الذى يجنبها ماتضطر اليه أحيانا من أن تبيع نفسها لهذا الرجل أو ذاك ٠٠

هم يريدون بالمساواة أن يعصموا المرأة من أن تقدم نفسها الى واحـد من الرجال نظير ثمن ٠٠ فمن غير المعقول أن يطلبوا لهـا أن تقـدم نفسها بالمجـــان !٠٠

ولو بحثنا عن نسبة الساقطات ، بين النســـاء العـــاملات والنساء العاطلات ٠٠ بين المساويات للرجال وبين التابعات ٠٠ لوجدنا الأغلبية الساحقة من الفريق الثانى بغير جدال ٠٠

ان السقوط ضعف ٠٠ أما المساواة فهى تكسب المرأة قوة !٠٠




كتابنا القادم
الوجودية
بقلم أنيس منصور

مذاهبهم

فى كتاب صغير أنيق ، عنوانه « هذا مذهبى » ، أشرف عليه الدكتـــور طه حسين ، تحدث عدد من أبرز رجال السياسة وآلفكر والأدب ، الذين يؤثرون فى الحياة بأعمالهم أو بأقلامهم ، تحدثوا عن « مذاهبهم » ..

ولم أقرأ الكتاب كله بعد ...

ولكننى اخترت ـ من الفهرس ـ ماكتبه فريق منهم ، لكى أجعله مادة لهـــذا التعليق ..

والذين اخترتهم هم ، بترتيب مقالاتهم ، احمد لطفى السيد ، ســـامى الصلح ، اينورين بيفان ، محمود تيمور ، طه حسين ، وليم ديورانت ،سهير القلماوى ، احمد حسن الزيات ..

و « المذهب » ـ فيما أعتقد ـ معناه نظرة الانسان الى الحياة ، أى تفسيره لها والموقف الذى يتخذه منها ... هو نظرة الانســـــان الى المجتمع وليس نظرته الى نفسه وتحليله لشخصه .. هو نظرة الى الخارج ، لا الى الداخل .

ولكن هؤلاء المفكرين وآلكتاب قد اختلفوا فى فهم كلمة «المذهب» واختلفوا نتيجة لذلك فى طريقة الاجابة على السؤال الذى وجه الى كل منهم ، وهو : مامذهبك ؟ ..

كان أكثرهم رعاية لمعنى السؤال ، الكاتب الأمريكى « وليم ديوارنت » صاحب الكتب المعروفة فى تاريخ الفلسفة .. فشرح مذهبه فى دقة واحكام، بصرف النظر عن « موضوعية » مذهبه ..

قال وليم ديورانت : انه يؤمن بوجود الله ، وبالرغم من أن عقله كثيرا مايعجز عن التوفيق بين وجود الله وبين انتشار صور الشر وسوء النظـام

والقسوة والضلال .. الا انه لايلبث أن يعود الى الايمان ، مقتنعا بأنالانسان أضعف من أن يفهم كل شيء !

وقال : انه يؤمن أيضا بوجود تطور طبيعي ، حتمى ، وان كانت هـــذه الحتمية لاتقضى تماما على حرية الفرد ، وأنه كان فى شبابه اشتراكيا ثم عاد فرأى أن الملكية الفردية والتنافس أسس لابد منها .. واعترف بأنه ليس متعصبا فى تقديسه للحرية .. لأن الحرية اذا طغت على العقل خلقتالفوضى والفوضى تنبت الدكتاتورية !!

ثم شرح « وليم ديورانت » مذهبه فى الحياة الأمريكية بالذات ، فقال ـ فى اعتراف آخر ـ « لقد كنا فى الجزء الأخير من القرنالتاسع عشر نتمتع بحرية اقتصادية أكثر مما يجب ، ونحن اليوم على مقدار من الحرية الخلقيـة أكثر مما يجب ، نتيجة لما نحن عليه من ثراء مضطرد وعقيدة دينية متناقصة وان عهد الحرية يوشك على الزوال ، تحت تأثير الخطر الخارجى ، ولأن حرية الفرد تختلف تبعا لسلامة المجموع » !

وهو رثاء طريف للحرية فى أمريكا !

على أننى لا أعلق على « موضوعية » كل مذهب .. ويـــكفينا من « وليم ديورانت » انه أجاب على السؤال الذى وجه اليه ..

أما الباقون ، فان أكثرهم قد فهموا السؤال على نحو آخر ، فقدموا قصة حياتهم وصوروا طباعهم الشخصية وأمزجتهم ، وهو فهم لا أظنه صحيحا .

طه حسين مثلا ...

قال في صدر كلمته : « .. وأول ما استكشفت من (مذهبى فى الحياة) خصلة أرى أنها قد صحبتنى منذ الصبا وهى الظمأ الشديد الى المعرفة » ..

فهو قد قفز من المذهب الى « الخصلة » قفزة سريعة ، مع أن مذهبالانسان شيء والخصال التي يعرفها في نفسه شيء آخر ..

وعلى أساس هذا الفهم ، مضى طه حسين فروى ملخصا سريعا لقصة حياته المجيدة منذ أن كان طفلا فى القرية حتى أصبح وزيراً يعمل على أن يستقرفى نفوس الناس أن « العلم حق لهم يجب أن يكونوا جميعا سواء فى القدرة على أن يطلبوه » .. ثم خلص من شرح ظروف حياته ومغزى رسالته الى تركيز « الخصال » التى عرفها من طبيعة نفسه وهى : « ظمأ الى المعرفة ، وصبر على المكروه ، ومغالبة للأحداث ، وطموح الى اقتحام المصاعب ، وجهر بما يرى أنه حق ، وشعور قوى بالتضامن الاجتماعى » .

وقال طه حسين أخيرا : ان هذه الخصال هى التى « كونت » مذهبه فى الحيـــــاة ...

أما عن « مذهبه » بالذات ، فلم يقل شيئا ..!!

وعلى هذا النمط فى فهم السؤال كتب الأكثرون ..

ومن أطرف الاجابات التى سارت على هذا النمط ، اجابة الأستاذ احمـــد حسن الزيات .. صاحب الرسالة .. القديمة !!

لقد فسر « المذهب » تفسيرا لغويا بأسلوب « مختار الصحاح » فقال : « المذهب طريق تذهب فيه » !..

ثم أراد أن يشرح مذهبه الخاص فقال :

« ان مذهبى فى الحياة يتميز بالاستقامة والوضوح !! وبفضل هـــاتين الميزتين بلغت الغاية التى قصدتها منذ وعيت .. وهى « العيش الرضى ، والبال الرخى ، والذكر الحسن » !!

ويا بخت الأستاذ الزيات براحة باله !!

لقد قال ان الغاية التى قصدها فى مذهبه هى : « العيش الرضى والبال الرخى والذكر الحسن » !.. ثم زادنا شرحا فقال ان من مذهبه أيضـا « ان أدع الخلق للخالق فلا أنتقد ولا أعترض ، ولا أمد عينى وراء الحجب ، ولا أرهف أذنى خلف الجدر .. لذلك عشت لين الجانب ، سليم الصدر .. لا أدخل فى جدل ، ولا أشارك فى مراء ، ولا ألج فى مناقشة !!.. »

لكأن الأستاذ الزيات يقدم للناس نصائح للاحتفاظ بشبابهم ·· فلم يبق الا أن يشير الى فوائد النوم المبكر وحمامات البخار !! ··

ولست أدرى ·· فيم ظل الأستاذ الزيات بعد ذلك يحمل قلمه أكثر من ثلث قرن ·· رغم أنه ترك الخلق للخـالق فلا ينتقـد ولا يعترض ، ولا يدخل فى جدل أو يلج فى منافسة !! ··

ولست أدرى ·· كيف كانت تصبح الدنيا لو اعتنق الناس جميعـا مذهب الأستاذ الزيات ، فتركوا الخلق للخـالق ·· فى حين أن الخـالق نفسه لم يعف خلقه من المسئولية !! ··

ومن الذين كتبوا فى حدود السؤال أيضا ، الدكتورة سهير القلماوى ··

ومن مقالها نفهم : أنها تؤمن بالحياة كما خلقها الله ·· وتؤمن بأن كل مذهب يتمشى مع الحياة يعيش ، وكل مذهب لا يتمشى مع الحياة لا يعيش ·· أما المذهب الذى تعتقد سهير القلماوى أنه يتمشى مع الحياة فهو : الاعتدال وعدم التطرف ، وأن كل شىء فى الوجود له نفعه وفائدته ، وما قد يبدو لا فائدة منه ·· يسند غيره ويقويه ··

وقد ضربت مثلين للتدليل على صحة مذهبها فى « عدم التطرف » ·· الأول بقضية المرأة « قسا الرجل على المرأة قسوة شديدة فثارت تقول : أنا رجل مثلك ! ·· ومرت الأيام فاذا طلب المساواة بالرجل يتخذ شكلا أقرب الى حقيقة الحيـــاة ، وأصبحنا نقول : المرأة والرجل يتســـاويان فى الحقوق ولكنهما يختلفان ، وفى اختلافهما سر الحياة » · والمثل الثانى بحركة المساواة بين أفراد الشعب ·· « فقد ظلمت فئة أخرى ظلما شديدا فاذا صيحة المساواة تتطرف حتى تنكر حقائق الحياة ·· ونشأت مذاهب سياسية تحاول أن تجعل من الفرد مجرد خلية متساوية كل المســـاواة مع سائر خلايا المجتمع ··

والحياة تأبى التطرف لأننا لم نخلق جميعا سواء الا بقدر معين ·· فيجب ألا نتساوى الا فى الحقوق والواجبات »



لطفى السـيد ـ طه حسـين ـ سهير القلماوى

فهى اذن قد قدمت لنا « مذهبا » ·· بالفعل ·· ولم تقدم قصة حياتها أو تحليلا لشخصيتها ··

وبعد هذه الملاحظة ·· نجد أن قراءة هذه المقالات توحى بالـكثير من الخواطر والتأملات ··

اقرأ مثلا ما كتبه لطفى السيد وطه حسين ··

سوف تلاحظ على الفور أن ثمة شبها عجيبا بين ما كتبه الاثنان ·· شبها فى طريقة التفكير وفى أسلوب التعبير على السواء ·· حتى لـكأن المقالين من مداد قلم واحد ؟! ··

كلاهما أجاب على السؤال بأن قدم ملخصا لحياته ورسالته ، وكلاهما قال فى اجابته :

● ان ظروف الحياة والمزاج الطبيعى قد فرضا عليه مذهبه فى الحياة ··

● ان أقوى ما فى طبيعته هو الميل الشديد الى تلقى المعرفة ، والى نقل هذه المعرفة للناس ··

● ان نشر التعليم كان أبرز بنود رسالته ··

● أن صفاته : الصبر ، والتعميم ، والاستقلال بالرأى ، والاحتفـاظ بالحرية ··

والحق أن طه حسين يعد امتدادا لأحمد لطفى السيد من نواح كثيرة ·· وليس من محض المصادفة أن طه حسين بدأ يكتب فى « الجريدة » ·· وأن أول من شجعه على الـكتابة كان لطفى السيد ··

ثم ننظر من زاوية أخرى الى ما كتبه لطفى السيد وطه حسين ، مضافا اليهما هذه المرة محمود تيمور ·· فنرى ظروف كل واحد منهم منعكسة فيما كتب ··

محمود تيمور ·· الرجل الثرى الذى ولد فى بيئة ليست فى حاجة الى العمل قط ، يقول : **ان فلسفته هى الايمان بالعمل ، ثم نفهم من كلامه أنه ليس ايمان الرجل الذى لابد له من العمل ، بل ايمان الرجل الذى يرى أن حياته بغير العمل تصبح فارغة تافهة .**

فهو ليس المرهق بالعمل الذى يطلب الراحة ، بل المرهق من الراحة يطلب العمل ..

« الشبح المرهوب » الذى يهدده ليس « البطالة » .. ولكنه « الفراغ » ..

انه يعمل كما يلعب أغا خان الجولف ، ويهتم بالأدب كما يهتم الوجيه محمد سلطان بسباق الخيل ، والوجيه عبد الحميد الشواربى بلعبة البولو !!

أما لطفى السيد فهو من فئة أخرى غير الفئة التى ينتمى اليها تيمور .. انه ليس بفقير .. ولكن الثراء فى بيئته مقترن بالعمل .. العمل عنده ليس عند حد الضرورة ولكنه أيضا ليس بمحض هواية .. وهو قد اشتغل بالقضايا العامة بدافع أقرب الى « النخوة » .. اذ « رأيت ظروف الحياة المصرية من حولى لا يطمئن اليها الرجل الكريم » ! ..

فلم تكن ظروفه هو بالذات سيئة ، ولكنه رأى ظروف من حوله من المواطنين سيئة .. هو ميسور الحال ، مثقف ، مستنير .. والبيئة من حوله تعانى من الشظف والجهل والظلام ..

أما طه حسين فهو أكثرهم امتزاجا برسالته ..

وكانت دوافعه أقوى من رغبة قتل الفراغ ، وأعمق من النخوة ! ..

انه لا يرى ظروف الحياة من حوله سيئة ، بل ينبت من صميم هذه الظروف السيئة ، ويجد نفسه فى صباه ضحية لها .. يجد نفسه ضحية ظروف مصر كلها من الجهل ، والفقر ، والتخلف ، ويعانى آثار ذلك فى علاج عينيه ، وفى العلم الغث الذى يلقى عليه ، وفى الخرافات الخائفة التى تحيط به .. فحياته كانت حربا مباشرة ضد هذه الأشياء جميعا ، ومعركته كانت أعنف بكثير من معركة لطفى السيد وتيمور ..

بقى من الذين اخترتهم سياسيان ، واحد من الشرق وواحد من الغرب ، هما : سامى الصلح وأنيورين بيفان ..

أما سامى الصلح فانه لم يحدثنا عن مذهبه ، بل عن أسباب نجاحه .. وهو ناجح بالطبع ، بدليل أنه تولى أرقى المناصب فى لبنان ورأس الوزارة عدة مرات .

وفى أدوات نجاحه ، نجد صورة الساسة الشرقيين من الطراز القديم ..

انه يقول : انه لم يحاول النجاح بواسطة المواهب الخطابية أو الفكرية أو الدعاية الشعبية الواسعة .. ولـكنه سلك الى النجاح طريقا آخر هو : العلاقات الحسنة مع الناس ، والتقرب اليهم ، واقناع كل واحد بأنه أخ له وصديق !!..

أى أنه اختار للنجاح السياسى .. أسلوبا اجتماعيا شخصيا .. لا فكريا ولا مذهبيا ..

وأما بيفان ، فاننا نرى فى كلامه صورة صادقة للديمقراطية الانجليزية التقليدية ، التى تؤمن بأن كل موضوع له وجهتا نظر ، كلاهما على قسط من الصواب .

وهو يضرب لذلك مثلا دقيقا فيقول : انه سأل واحدا من الناس أثناء الحرب الأخيرة « بم يصف رجلا ألمـانيا يعيش فى ألمـانيا ويعمل على هزيمة النازيين ؟.. اننا اذا حكمنا عليه بالمقاييس التقليدية كان خائنا ، واذا حكمنا عليه كخيط فى نسيج البشرية العريض كان بطلا » ..

وقد طرد بيفان أخيرا من حزب العمال ..

وأعضاء الحزب الآن يسألون أنفسهم : هل هو خائن .. أم بطل !!

عاد بيفـان بعد نشر هذا المقال الى صفوف حزب العمال

الأدب الشعبى

كيف نعرف بلدا كمصر ؟ ·· ومجتمعا كالمجتمع المصرى ؟··

نستطيع أن نعرفه ـ مثلا ـ عن طريق الأرقام · فنحصى الدخل القومى من الصناعة ، ومن الزراعة ، ومن المهن الحرة · ونقول ان الملكية فيه موزعة بنسبة كذا ، وأن متوسط دخل الفرد كذا ··

ونستطيع أن نعرفه ـ أيضا ـ عن طريق التاريخ · فندرس العوامل التى كونت هذا الشعب ، والفئات التى ينطوى عليها ، ونتتبع أصل التيارات التى تتجاذب فيه ·

ونستطيع ·· ونستطيع ··

على أن هناك طريقا آخر ، ربما كان أقرب الطرق الى معرفة باطن هذا المجتمع وما يعتمل فى نفسه من معتقدات ومشاعر وأحلام ذلك هو : طريق دراسة فن هذا الشعب وأدبه وعاداته ··

ولا أقصد بأدب هذاالشعب وفنه وعاداته الأدب المسطور فى الكتب، المقترن بأسماء الكتاب الكبار أو الصغار ، ولا الفن الذى نسمعه من محطة الاذاعة ، ولا العادات التى اكتسبناها نحن أبناء المدن ، وخريجى المدارس ، من احتكاكنا بالحضارة واختلاطنا بالأجانب ومشاهداتنا لأفلام السينما ·· ولكننى أريد الفن والأدب والعادات المثلة فى الأمثال العامية التى نسمعها من العمات والخالات والفلاحين البسطاء ، والأغانى التى ترددها الغوازى فى الريف والمواويلالتى ينشدها المنشدون فى الموالد ·· والمقطوعات الحزينة التى تهدهد بها الأمهات أطفالهن ساعة النوم ·· وكل تلك الآثار التى لم ينظمها مؤلف بعينه ، ولم يلحنها ملحن بعينه ، انما انبثقت من الناس انبثاقا ، خلال تاريخ طويل من الآلام والمسرات ·

تعال مثلا الى مجتمع الفلاحين ..

ان الكتب التاريخية تقول : ان الفلاح المصرى هو صاحب أقدم تاريخ فى الذلة والعبودية .. والمقاومة !../ وانه منذ ظهر أمراء الاقطاع الفراعنة قبل الميلاد بآلاف السنين الى ما بعد الميلاد بعشرين قرنا ، ظل هذا الفلاح يعمل فى حقول سادته بنفس اليد الجافة ، والقدم العارية ، والشادوف الحزين .. سواء كان هؤلاء السادة فراعنة أم رومانا أم أتراكا أم باشوات مصريين !..

والكتب الاجتماعية تقول : ان هذه الظروف خلقت لمجتمع الفلاحين نوعا من التفكير والعادات ، وعلمته أسلوبا فى الرضوخ والتسليم أو السخط والاحتجاج .

على أننا نستطيع أن نترك كل هذه الكتب جانبا ، ونسمع قصة الفلاح من فمه .. ونعرف فلسفته من أمثاله وأغانيه وملاحمه :

لقد آمن الفلاح خلال هذا التاريخ الطويل أنه ما خلق الا ليشقى . وان هذا النظام الظالم لا بد أنه هو النظام الطبيعى ، والا لما استمر كل هذه السنوات !.. وانه لا بد مخلوق من طينة غير طينة السادة المالكين .. فهو يقول :

- **ان طلع من الخشب ماشه .. يطلع من الفلاح باشا ! ..**
- **عمر الفلاح .. ما فلح !..**
- **الفلاح مهما اترقى ، ما تروحشى منه الدقة !..**

وانتقال الفلاح من الفقر الى الثراء مستحيل لأن هذاالثراء لا يأتى الا من رأسمال سابق ، أو لأن : « اللى مالوش خميرة ، ما يتخمرلوش عجين !..

وما دام الأمر كذلك فالمساواة بين الناس مستحيل أن تتحقق :

● **ربنا ما ساوانا الا بالموت !٠٠**

● **لما انت أمير وأنا أمير ٠٠ أمال مين يسوق الحمير ؟!**

ونظام الحكم أيضا ، لابد أن يتبع هذا الوضع الاجتماعى ، فمالك القوة الاقتصادية هو الذى يحكم : « حكم البلد على تلها » والتل هـو المـكان المرتفع من الارض !!٠٠

ثم انه يرى ان الظلم لا يأتى من الداخل فحسب ، بل ومن الاحتـلال الخارجى الذى يستنزف الموارد ، فيقول الفلاح الذى لم يبرح حقله البعيد أبـدا :

● **ديار مصر خيرها لغيرها !٠٠**

● **فقر المرء فى وطنه غربه !٠٠**

ولكنه ٠٠ كيف يبرر خضوعه لهذا الظلم الطويل ؟ ٠٠ كيف يبـرر عجزه واستكانته ؟

نعم ، حتى العجز والخنوع لهما عنده تبرير :

● **اسجد للقرد فى زمانه !٠٠**

● **ابعد عن الشر ٠٠ وغنى له !٠٠**

● **اذا ناس بتعبد جحش ٠٠ حش وارمى له !!**

وكل هذه الأمثال والأقوال تنم عن الحالة الأعم فى تاريخ الفـلاح المصرى ، وهى حالة انتصار الظلم والخضوع له ٠ ولكننا نرى خلال ذلك كلمات تنم عن الاحتجاج لا الاستسلام ، والسخط لا الاذعان ٠

فنرى الأدب الشعبى يسخر من التفرقة بين الغنى والفقير فيقول :

● **اذا غنى أكل حية ، قالوا من حكمته !.. واذا أكلها الفقير قالوا من حمورينــه !!**

فكل شيء مستحب من الغنى ، مستنكر من الفقير .. أو :

● **ابن مين اللى محمول ؟ .. ابن اللى عندها مأكول !.. ابن مين اللى ماشى ؟.. ابن اللى ماعندهاشى !!..**

أو نسمع هذا الاحتجاج فى موال :

من كتر غلبى بادور ع الشجا ملجاه !

ولا التجيش البياتة حتى فى ملجاه !..

دى دنية الشوم .. لا خلت عزيز ولا جاه ..

فيها العزيز ينظلم .. والندل يتهنى ...

من غير ما يشجى يلاجى كل يوم مال وجاه !..

و « القاف » فى هذا الموال ـ وفى غيره مما سوف أعرض له ـ مكتوبة « جيم » ..

ولا بد أن يبدى الفلاح رأيه أيضا فى جهاز الحكم والحاكمين .. ويشرح لنا رأيه فى روتـين الحكومة ونظامها الذى رآه خلال مئات السنين ..

هو يرى الحاكم التركى يسرق فيقول :

« **حاميهـا حراميهـا !** »

ويراه فظا قاسيا فيصف كل شر بأنه « **زى كرابيج الحاكم !** »

وهذا الحاكم التركى لا يطيق أن يتعرض له أحد ، فيصفه الفلاح قائلا :

● **اللى يشرب من مرقة السلطان تنحرق شفته !..**

● **اذا مشيت على قبر الكبار أسرع .. عضم الكبير فى القبر يجرح !!**

والروتين الحكومى بطىء ثقيل « **يوم الحكومة بسنة** » •• وأفراد الجهاز الحاكم أكثر مما ينبغى : « **أردب مشايخ وربع فلاحين !!** » ••

فاذا أراد الفلاح أن يقضى مصلحة فلابد له من أن يدفع رشوة •• وهو لذلك يقول فى أمثاله : « **ارشوا تشفوا !** »

أو : « **ان حبيت حاجتـــك تقضى وتكرم ، ابعت لهـــا راجل يقولو له « سى درهم » !** ••

وفى مجتمع الفلاحين أيضا يرسمون الصور الكاريكاتيرية الساخرة عن أخلاق الطبقة الحاكمة فيقولون :

- **زى بعجر أغا ، ما فيه الا شنبات !**
- **وعن المنافق يقولون : زى التركى المرفوت ، يصلى على ما يستخدم !**

ولكنهم آخر الأمر ييأسون من انصلاح الحال ، فيهزون رؤوسهم قائلين:

- **ايش تبالى السما •• بعياط الكلاب !!**

ولا يقف « الأدب الشعبى » عند تصوير الحالة العامة المســـتمرة فى مجتمع الفلاحين •• بل انه يتصدى أيضا بصورة أقوى وأروع لوصنـــف الأحداث التاريخية الكبرى ، أو أيام الكفاح !

فى صعيد مصر مثلا ، تعيش ملحمة نادرة من مئات الأبيات ، تروى قصة محمد على الكبير عندما بدأ يجنـــد الفلاحين المصريين بالقوة لأول مرة ليبعث بهم الى ميادين قتال بعيدة ، لايكسب من النصر فيها سواه ••

والملحمة تصور أما أخذوا ابنها قهرا •• وتقترب الملحمة من نهايتهـا والأم تروى وداعها لابنها على المحطة ، مع ملاحظة أن « الجيم » فى اللهجة الصعيدية تستعمل بدل القاف :

على المحطة •• ووجف بالمجهود ••

جال : عودى •• والحى فينا يعود !••

على المحطة وشاشيت له بايدى ••

جال : عودى •• لا بيدك ولا بيدى !

على المحطة وشاشيت له بكمى ••

جال : عودى •• وبخاطرك يا أمى !

ثم تعود الفلاحة ، وهى تدعو دعاء مؤثرا بأن تنتهى الحـــرب ويستقر السلام ليعود الابن الغائب :

يا مين يجولى درب اللظا سدوه ••

كفو البنادج •• والبارود كبوه !••

وفى يوميات الجبرتى ، يروى قصـــة تظاهر الناس تحت نوافذ الوالى عندما زاد الضريبة ، ينشدون وراء الشاعر الشعبى :

باشـــا يا باشا يا عين القملــه ••

مين قال لك تعمــل دى العمله !

باشا ياباشا يا عين الصــيره ••

مين قال لك تعمل دى التدبيرة !

وحين يحجز البرديسى زعيم المماليك على التجار ، يصيحون :

- **ايش تاخد يا برديسى •• من تفليسى !••**

* * *

ونترك السياسة ، ونمضى وراء « الأدب الشعبى » فى قضية أخرى •• قضية المرأة والحب !

والمرأة فى المجتمع المصرى منذ عهد بعيد جدا ، أقل من الرجل • ففى النقوش الفرعونية كانوا يرســـمون المرأة دائما أصغر حجما من الرجل ،



المـاى ... الأرغول ... الرباب ... الرق
فنون الأدب الشعبى

رمزا الى أنها أقل منه. وكانوا يرسمون فى يد الرجل عصا التـأديب ، رمزا الى حق الرجل فى تأديب المرأة ..

وقد تفرع عن هذا الوضع أن أصبحت المرأة شيئا يدخل فى حـــوزة الرجل وضمن ممتلكاته .. ونحن نرى أن العامة الى اليوم يستعملون فى الزواج لفظ « الاقتناء » فيقـولون عن امرأة ان « قانيـها » لا يحســـن تأديبها مثلا ..

وأصبح الزواج بالتالى هو الوقاية الوحيدة للمـــرأة . وبات أقرب الى عملية الشراء ..

وها هى الحكمة الشعبية تقول للمرأة :

- **جوز من عود .. خير من قعود !**
- **أقل الرجال يغنى النساء !..**
- **ضل راجل ولا ضل حيط !**

ثم نجد هـــذه النظرة الى علاقة الرجل بالمرأة ، ظاهرة فى كل مراحـــل الزواج .

عندما يذهب الفتى ليخطب فتاة فهو ذاهب يشتريها . وهو يروى حواره مع أبيهـــا :

روح ياعبد ما انت قد شراها ..!

وحياة أبويا .. قدها وأسواها ..

وأضرب بسيفى ولو أموت حداها !

وتنظر الفتاة الى المهر على أنه ثمن لها . فهى تطلب أعلى سعر ، وان كان يحبها حقا فليبع كل ما يملك ليشترى لها دهانا لرأسها ، ولو اختلف فى ذلك مع أمه وأبيه :

وأمشى خاطرك يا الأحمدى تحط حلوانى ..

ميتين جنيه ميتين جنيه تتعد جدامى ..

يا الأحمدى يا الأحمدى يا أبو كم « مدراسى » ..

بيع الجمل بيع الجمل وهات لى دهان راسى ..

وان عاركوك أمك وأبوك : حب البنات قاسى !..

والكم « المدراسى » هوالكم الواسع ، وكان علامة الثراء !

ولأن المرأة أقرب الى السلعة وعلاقته بها علاقة استعمال .. فالرجل يطلب فيها أولا وآخرا مزايا جسدية فحسب ، فترى « الخاطبة » لا تتحدث عن ذكاء العروس أو ثقافتها !.. بل عن جمالها الجسدى ، بل الجنسى فحسب :

انظر بعينك يا جميل — بيضه فى لون الياسمين

راسها راس اليمام — سبحان الخلاج العظيم

يا عيونها عيون غزلان — يا حاجبها خطين بأقلام

يا سنانها لولى ومرجان — يا خدودها تفاح الشام

يا حنكها خاتم سليمان — يا صدرها بلاط حمام

يا بطنها عجين خمران — يا سرتها قعر الفنجان !..

وتمضى الأغنية الشعبية فى الوصف الى آخره !..

وتتم الخطبة ، وتبدأ لهفة العروس على اتمام الزواج ، وتلكؤ العريس حتى يستعد .. وتعبر العروس عن لهفتها فتقول :

كل البنـــات اتجوزوا وأنا وجف حـــــالى !
رسلت له رســـلت له ســـلامين جوا السيف
رسل وجال رسل وجال « الجيزة » بعد الصيف
رسلت له رســـلت له سلامين فى نص رغيف
رسل وجال رسل وجال الصـــــبر يا لطيف
رسلت له رســـلت له سلامين فى جرجوشـــه
رسل وجال رسل وجال الصـــبر يا منتوشه !

وتمضى الأغانى الشعبية مصورة كل مراحل الزواج من الخطوبة والمهر ثم مرحلة تبادل الهدايا ، هى تغزل له شالا وهو يرسل لهازجاجة«فايحى» أى زجاجة عطر ·· ثم ليلة الحنة ، والدخلة ، والصباحية ··

والملحوظ أن أغانى هذه المرحلة كلها أغان من ذات اللون الجنسى الصارخ

على أن من أبرع لمحات الأدب الشعبى فى حديثه عن الزواج ، تسجيله للحالة الشائعة فى المجتمع المصرى من خلافات الزوجة مع أهل زوجها ، وكراهية الزوج لحماته ، وتحريض الأم لابنتها على أهل زوجها ·

نرى ذلك فى الأمثال كالتى تقول :

- **يابنتى خايفه عليكى م العيلة ·· قالت لسانى معايا !**
- **الـكى بالنار ولا حماتى فى الدار !**
- **حماتك مناقره ·· قال طلق بنتها ·**

والعروس تريد من زوجها أن ينسى أهله ويقاطعهم ، والا فلن تسمح له بأن يقربها ·· كحوار الأغنية التى تقول :

بردان أنا يا جرنفــله غطينى !

والله ما أغطيك ولا أجرب يمك

حاشى تبيع خالك وترهن عمك !

وتكسر السـلم على رأس أمك !

وأنا ألبس الـكشمير وأجف قدامك !

أو تأمل هذا المشهد الطريف ، مشهد زوجة تغيظ حماتها باستحواذها على ابنها ، ترويه هذه الأغنية التى تقول فيها الزوجة :

جاب لى توب يالالى

وأمه بتدلى يالالى !

جاب لى شنكيته (جاكته)

وأمـــه على الحيطـــه !

جاب لى لمـــونه

وأمـــه مجنونه

جاب لى تفاحـــه

وأمـــه فلاحه !

* * *

وبعـــــد ..

فاننى لم أطف فى الريف أيها القارىء ولم أقض السنوات منقبا عن هذه الروائع من أدب الشعب وفنه لـكي أقدمها لك في هذا المقال ...

أنا لم أصنع أكثر من أنى قرأت كتابا ممتازا حقا ، عن « الأدب الشعبى » ألفه الأستاذ احمد رشدى صالح ، ربما كان أروع ما أضيف الى المكتبة العربية خلال السنة الماضية كلها ..

ومؤلف الكتاب ، الأستاذ احمد رشدى صالح ، هو الذى تجشم هذا الجهد الجبار خلال سنوات طوال ، حتى جمع لنا هذه الثروة النادرة من أدب الشعب ، ثم فلسفها وحللها وقام بدراسة ممتازة عن ماهية أدب الشعب وأسلوبه الفنى ومحيطه الحضارى والاجتماعى .

وهى دراسة ممتازة حقا لا يعيبها الا الأسلوب المعقد الذى كتبها به ، والذى لا يتلاءم مع موضوع مثل « الأدب الشعبى » !!

والكتاب كما يحدثنا المؤلف من جزئين ، ظهر منهما الجزء الأول .. ونحن فى انتظار الجزء الثانى على أحر من الجمر !

واذا كان مقالى هذا قد أغرى فريقا من القراء بالاهتمام بأدب الشعب ، وبالاقبال على قراءة كتاب الأدب الشعبى .. اذن فقد أدى المقال رسالته

أما أنا فقد قرأت الكتاب أكثر من مرة .. وكنت أجد نفسى خلال قراءته قريبا من قلب الشعب .. عينى مفتوحة على ملامحه ، وأذنى موضوعة على قلبه .. وهو قلب كبير !



بعد الحرب الذرية

هذه قصة غريبة كتبها الكاتب الانجليزى « الدوس هكسلى » وهو كاتب متشائم ، تنتابه القشعريرة منذ سنوات طويلة ٠٠ فهو يتأمل مايسود العالم من توتر وقلق وخوف ومن خطر الحرب المعلق فوق الرؤوس فيقشعر فكره ، وقلمه ٠٠ ويكتب قصة « العالم الطريف » يتخيل فيها العالم وقد تقدم حتى أصبح يصنع أطفاله فى أنابيب الاختبار ! ٠٠ وفى كتاب « السلام والعلم والحرية » الذى قدمته اليك ، يثبت أن التقدم العلمى أصبح الآن لمصلحة الاستبداد ، لا الحرية ٠٠

أما فى هذه القصة وعنوانها الأصل «Apeand Essence» يتحدث عن العالم بعد ١٣٠ سنة ٠ وقد تصور أن الحرب العالمية الثالثة قد نشبت وأن العالم قد فنى تقريبا من القنابل الذرية والأيدروجينية ٠٠

والمؤكد أن « هكسلى » فى تشاؤمه هذا كله ليس على حق ، ومع ذلك فان لقصته هذه قيمتها ، كتخدير رهيب ، للذين يمهدون للحرب ، أو يتصورونها حلا لمشاكل البشر ٠٠

* * *

يقول « هكسلى » :

فى اليوم الذى قتل فيه غاندى ، كنت جالسا مع زميلى بوب فى حجرتنا المشتركة ، بالشركة السينمائية التى نعمل فيها ٠ وكان بوب قلقا ساخطا ، لا لمصرع غاندى ـ الرجل الذى دعا الى السلام وآمن بالانسان فلم نكتف بطرح بمبادئه بل قتلناه أيضا ـ لم يكن بوب قلقا ساخطا لهذا السبب ، بل لأن عشيقته الجميلة تريد منه أن يطلق زوجته ويتزوجها ٠٠ وزوجته تأبى عليه الطلاق ٠٠ والعشيقة تهدد بالقطيعة ، وقد بدأت تظهر فى الحانات مع مليونير برازيلى صامت ٠٠ وهو لا يدرى ماذا يصنع !

وكنت أحاول أن أحدث صديقى عن المأساة الكامنة فى مصرع غاندى ،

وأبرز ذلك بأنه آمن بالانسان نفسه ، لا بالعلم والقوة وغير ذلك ، وبأنه مضى يفتش عن الجوهر ، عن النور الداخلى ، لا عن الأردية الخارجية .. ولكنه لم يكن يستمع الى ، ماضيا فى حديثه عن عشـيقته .. بل وعن سخطه على « لوزلوبين » الرجل الذى هو صـاحب الشركة السـينمائية الضخمة الذى نعمل فيها ككتاب سيناريو .. فقد ذهب بوب اليه وطلب زيادة مرتبه . ونظر اليه الرجل الضخم الثرى من وراء مكتبه وقال :

ـ لو هبط هنا المسيح نفسه .. فلن أرفع أجرك دولارا واحدا ! ..

وأخذت أتخيل تلك الصورة البـديعة : المسـيح هـابط أمام مكتب « لور لوبين » على رأسه هالة من النور ، وقد ضم يديه فى دعة ، يستعطف الرجل فى زيادة مرتب كاتب السيناريو .. وكيف أن المسيح سينصرف بعد ذلك آسفا ، يلفه ظلام الرجاء المرفوض !

وصاح بوب : اذا كنت قد شربت قهوتك .. فلنخرج ..

وخرجنا من المكتب ، مارين فى فناء الاستديو بالديكورات ، والأبنية الزائفة ، والستائر والمناظر .. حتى اقتربنا من باب الخروج ..

وكنت تائه الذهن أفكر فى غاندى الذى قتل .. حين جذبنى بوب من ذراعى فجأة .. فأنقذنى من الوقوع تحت سيارة نقل ضخمة كانت تعبر الباب . وكانت السيارة تسـير بسرعة ، وقـد تكدسـت فوقهـا آلاف المخطوطات .. هى قصص الأفلام التى يرسـلها الهـواة والمغمورين كل يوم الى الشركة .. وكانت السيارة تحملها الى حيث تحرق ويتخلصون منهـا ..

وصاح بوب : فى هذه السيارة أدب بمليون دولار !

وانحنى يجمع بعض المخطـوطات التى وقعت منهـا ، يتصـفحها . واستوقفنى مخطوط له عنوان غريب .. وقلبت الغلاف ، فوجدت فى أول صفحة منه شعرا غريبا ، حزينا ، رائعا ، مطلعه :

الانسان .. يختار الوسائل فقط ..

أما الغابات ، فتختارها القرود !

وعدت الى الغلاف أقرأ إسم صاحب هذا السيناريو ••• « وليم طاليس » كوتنوود ، كاليفورنيا » •• وقررت أن أذهب لمقابلة هذا الرجل الغريب••

وركبت السيارة مع بوب الى تلك الضاحية النائية ، رفعتنا الهضاب وخفضتنا الوهاد ، حتى عثرنا على بيت غريب منفرد ، على ربوة مشجرة •• طرقنا بابه وسألنا : مستر طاليس هنا ؟

فأجابتنا سيدة عجوز : لقد ذهب منذ أسابيع ••

ــ ذهب •• الى أين ؟ ••

ــ الى هناك !

وأشارت الى قبر منعزل فريد ، تحت شجرة ضخمة تقوم وحيدة فى السهل المنبسط ، ولما أردنا أن ننصرف ، أصرت السيدة على أن ندخل ونجلس ، وطفقت تحدثنا فى أسى عن مستر طاليس ، وطيبته ، وشذوذه ، ووحدته القاسية التى كان يعيش فيها ، مفكرا فى أشياء غريبة •• وكان قد استأجر منها هذا البيت لمدة سنة ، ودفع لها الايجار مقدما •• غير أنها جاءت ذات يوم تحمل اللبن •• فوجدته فى الحمام ، جثة هامدة عارية وقد أوصى بأن لا يدفن فى مقابر المدينة ، واختار ذلك القبر الوحيد تحت الشجرة المنعزلة •

وسألتها : هل كان مستر طاليس مريضا ؟

فقالت : كلا •• لم يكن مريضا قط • وان كان يشكو من تعب فى القلب •

وأخبرتنا السيدة بمعلومات أخرى عن الرجل ، فقد مات فى السادسة والستين ، وهى تعلم أنه كتب سيناريو وأرسله الى إحدى الشركات السينمائية ، ليحصل على بعض المال •

ــ لم يكن يريد المال لنفسه • بل كان يريد أن يرسله الى أوربا ، فقد

تزوج مستر طاليس من فتاة ألمانية قبل الحرب الأولى وأنجب منها طفلا ، وعاد الى أمريكا وقامت الحرب ، واليوم لم يبق له الا حفيدة على قيد الحياة هناك . كان يريد أن يرسل لها بعض المال ..

وذكرت صفحات كتبها طاليس فى السيناريو الذى معى .. عن البنات اللواتى يبعن أنفسهن بعد الحرب من أجل قطعة شيكولاته ، أو شريحة خبز ..

ترى فيم كان يفكر هذاالرجل طاليس ؟.. لايدلنا على ذلك غير مخطوطه الذى وجدناه مصادفة يقع بين المهملات فى الاستديو .. وهو سيناريو لفيلم تقع حوادثه فى سنة ٢١٨٠ ..

وهذا هو المخطوط :

السيناريو

أول منظر يظهر على الشاشة ، بحر واسع مضطرب هو المحيط الهادى ، وعند الأفق البعيد يلوح شاطىء صامت مهجور لا معالم له ، هو شاطىء كاليفورنيا .. وثمة سفينة صغيرة ، تحمل علم نيوزيلندا ، تقترب فى بطء ..

واليوم يوم ١٢ فبراير سنة ٢١٨٠ وهؤلاء الرجال والنساء الواقفون على ظهر السفينة يتطلعون هم جماعة من العلماء والمستكشفين النيوزيلنديين فان نيوزيلندا ، حين نشبت الحرب العالمية الثالثة ، قررت أن تعتزل العالم لتنجو من شرور القنابل الذرية وأشعة الموت وحرب الميكروبات .. واعتزلت العالم مائة سنة كاملة .. لا يدخلها انسان ولا يخرج منها انسان . وفى تلك الأثناء كانت الحرب العالمية الثالثة تدمر العالم الخارجى تدميرا شاملا .. حتى كانت سنة ٢١٨٠ فقررت نيوزيلندا أن تخرج من عزلتها ، وأرسلت على هذه السفينة أول بعثة من المستكشفين ، ليكتشفوا أمريكا من الغرب هذه المرة لا من الشرق كما فعل كولومبس .

وفى ذلك الوقت كله ، وفى جانب آخر من العالم ، هو وسط افريقيا خرجت جماعة أخرى من السود الذين نجوا من شرور الحرب أيضا يستكشفون نهر النيل ، من الجنوب الى الشمال هذه المرة .

واقتربت الباخرة النيوزيلندية من الشاطىء الخاوى ‥ وصاح رجـل من الواقفين على سطحها : انظروا هذا هيكل حديدى قائم ! ‥ كانت هنا آبار زيت !

فقــال عالم جيولوجى من أعضاء البعثــة : اذا فهذه المنطقة لم يحدث فيها أى انفجار ذرى ٠

قال عالم الطبيعة : لا يلزم حدوث انفجار ذرى لافناء الحياة ‥ يكفى أن يكونوا قد استعملوا أشعة الموت !

قال عالم الأحياء : بل ان الميكروبات التى استعملت كان لها ولا شك النصيب الاكبر فى افناء العالم ٠

فقال العالم النفسانى : ان التأثيرات النفسية قد أدت مهمة الميكروبات الفاتكة فى حالات كثيرة ‥ فهاهى الدعاية المتصلة فى الصحف والراديو ، ترفع الضغط العصبى عن الناس ، وتبث فيهم خوفا فظيعا ، خوفا هائلا ، خوفا مركبا ‥ فينطلقون أفواجا الى الأنهار والبحـــار ينتحرون فيهـا بالجملة ويقتلون بعضهم بعضا ، وينهبون لغـير غرض ‥ قد أصابهم مس من الجنون ٠ ٠ألم يحدث ذلك فى نيويورك وبوسطن ولنـــدن وباريس وكييف ؟‥ ان الحب يطرد الخوف ولكن الخوف لايطرد الحب فقط ، بل يطرد أيضا العقل والتفكير السليم والثقة والخـير ‥ ازرع الخـوف بـين الناس ينهار كل شىء !

وتلقى البـاخرة مراسـيها على الشاطىء السـاكن ، وينـزل العلماء والمستكشفون الى الأرض ، ويهـرعون جميعـا الى الهيـــكل الحـديدى القائم على تل بعيد ‥ فى حين يتخلف عنهـم عالم النبـات المشـــهور « الدكتور بول » اذ لفتت نظره بعض نباتات متحجرة ، فهو ينصرف الى فحصها ‥ والدكتور بول عالم مشهور ولكنه فى سن الشباب ‥ جميل الصورة ، تلاحقه آنسة تدعى « مس هـــوك » وهى عالمة فى النبات مثـله ومساعدة له ‥ ومن الواضح أنها تنصب شباكها حوله ‥ وهو يحترمها ويقدرها بغير شك ‥ ولكنه لا يتصور أبدا أن تغدو زوجة له ‥

ويتغير المنظر على الشاشة ، وتتجول بنا « الكاميرا » فى ذلك الوادى الذى كانت تقع فيه مدن كاليفورنيا ·· وهوليوود ·· ولوس انجلوس ·· هذه المدن الزاخرة قد تركتها الحرب الذرية الثالثة أطلالا خاوية ، وأكواما من الجثث والجماجم والحجارة ··

وفى خرابة واسعة بجوار احدى هذه المدن ترى أول جماعة بشرية تسكن المنطقة وتهبط الكاميرا اليها ·· أربعة رجال وامرأتان ، فى أسمال بدائية قذرة بالية ، لحاهم طويلة وشعورهم مرسلة وأظافرهم طويلة هائلة ·· وعلى ظهورهم وصدورهم نقشت فوق الثياب بحروف ضخمة كلمة « لا » ، وهم جميعا يحفرون بهمة بعض المقابر القديمة وينبشونها بينما جلس رئيسهم يرقبهم وينظف أظافره بأسنانه ·

ويعثر الحاضرون على تابوت يفتحونه ويخرجون منه جثة ملفوفة فى أكفانها ويرتفع صوت الرئيس وهو يقضم أظافره ، يسألهم :

ـ رجل أم امرأة ؟

كان رجلا ، ويبدو أنه كان من الأثرياء أيضا ، ويمضى الحافرون يجردونه من القماش المتكفن به ، ومن بعض الخواتم الذهبية التى تزين أصابعه ·· ويحاول أحد الرجال أن يخفى فى ثيابه خاتما منها ، ويلمحه الرئيس ، فيضربه بالسوط الذى فى يده ضربة قاسية ، تسقط الخاتم من يد الرجل ·· ويقول :

ـ ستجلد ٢٥ جلدة ·

ـ سيدى ··

ـ هذا هو القانون ·· فكل محاولة لسرقة مال الجماعة يعاقب عليها بخمسة وعشرين جلدة ·

وهم معذورون · فهم لم يعودوا يملكون آلات للصناعة ، ولا فحما يخرج البخار ولا كهرباء لتوليد القوى ·· ولا أى مادة صالحة من المواد

الخام ٠٠ فلا مفر لهم من الاعتماد الى حد كبير على المقابر القديمة ينبشونها ويستخرجون منها كل ذى قيمة ٠

ويدير الرئيس وجهه على وقع أقدام آتية تسرع ، فيرى اثنين آخرين من رجاله يقبضان على رجل نظيف ، حليق ٠٠ غريب الشكل ٠٠ ويدفعانه الى الأرض أمام الرئيس ٠٠ انه الدكتور بول قدابتعد عن زملاءه دون أن يشعر فعثر عليه هذان الرجلان وأمسكا به وقيداه وقاداه الى هنا ٠

وعجب الرئيس لمنظر هذا الرجل ٠٠ ومد يده يتحسس بها ذقنه الحليقة وسأل :

ــ أتتحدث الانجليزية ؟

ــ نعم ٠٠

ــ حسنا ٠٠ فكوا قيده ٠٠ من أين جئت ؟

ــ من نيوزيلندا ٠

ــ نيوزيلندا ؟ أبعيد هذا المكان ؟

ــ جدا ٠٠

كان صوت الدكتور بول يخرج خافتا متحشرجا ، وقد جف حلقه ٠

ــ هل جئت على سفينة كبيرة ؟ لها شراع ؟

ــ كلا ٠٠ لقد جئت على باخرة ٠٠

ولمع وجه الرئيس ٠٠٠ باخرة ؟٠٠

تعنى أنه ما زالت لديكم بواخر ؟ أتعنى أنه تركها لكم ٠٠

ــ من تركها ؟

ــ الشيطان ٠٠

وكان الرئيس يشـير على رأسه بهيئة قرنين ، ولم يفهم الدكتـور بول شيئا وانطلق الرئيس يوضح الأمر :

ـ نعم ٠٠ فقد أصبح الشيطان سيد كل شيء ، بعد أن كسب المعركة حـين صنع الانسان كل هذا ٠٠

وكان يشـير بيديه الى السهل المترامى من الخرائب والأطلال والحجارة ، حيث كانت فيما مضى ٠٠ لوس انجلوس ٠٠

وأدرك الدكتور بول أخيرا :

ـ آه ٠٠ أنت تعنى الحرب العالمية الثالثة ٠٠ كلا ، لقد كنا محظوظين فخرجنا منها دون خدش واحد ٠٠ فان موقعنا الجغرافى البعيد لم تكن له أى أهمية استراتيجية بالنسبة لكم ٠٠٠

وقاطعه الرئيس : أما زالت عندكم قطارات ؟

ـ طبعـــا ٠٠

ـ والآلات ما زالت تعمل ؟

ـ طبعا ٠٠٠ وقد كنت أقول ٠٠٠

ولكن الرئيس لم يستمع بل صفق بيديه فى جذل ، ثم ربت على كتف الدكتـور :

ـ اذا فسوف تساعدنا على اعادتها هنا كما كانت ٠٠ سيكون عندنا قطارات ٠٠ قطارات حقيقية ٠٠

وفى غمرة حماسته هجم على الدكتور بول يقبلـــه والدكتور يرتجف من قذارته ٠

ـ ولكننى لست مهندسا ٠٠ أنا عالم نبات ٠٠

ـ مـاذا ٠٠؟

ـ عالم النبات هو الرجل الذى يعرف كيف يستنبت الزرع ..

ـ والآلات ؟..

ـ اننى لا أعرف الفرق بين الآلة البخارية والديزل ..

ـ اذا فلن تستطيع أن تصنع قطارات ..

ـ مستحيل ..

ورفع الرئيس قدمه فى غضب .. ورفس الدكتور بول رفسة ألقته على الأرض .. وحين كان الدكتور ينهض وينفض التراب عن ثيابه ، كان الرئيس يصيح فى رجاله : ادفنوه !

وصاحت واحدة منهم : حيا أو ميتا ؟

ـ حيـــا ..

وهجموا عليه ، يضعونه فى احدى الحفر وهم يضـــحكون ، بينمـــا كان واحد يهيل التراب فى الحفرة .. حتى دفن نصفه تقريبا عدا فتاة واحدة كانت تقف محتجة على ذلك .. وكان الدكتور بول يصيح فى الرئيس :

ـ الرحمة : الرحمة ! .. اننى أســتطيع أن أنفعــكم .. أستطيع أن أعلمكم الزراعة .. وأضاعف لكم الطعام ..

واستوقفت هذه الجملة الأخيرة رئيس الجماعة ..

ـ تضاعف لنا الطعام ؟

ـ نعم .. أقسم بالله ..

ـ لانعرف الله ... هــذا تقسم به فى نيوزيلندا ... عليك أن تقسم باسم « بليال » ، وبليـــال هو اسم الشيطان فى الجحيم الـــذى صـــوره « ملتـــون » ..

فصاح الدكتور بول قائلا :

- أقسم ببليال العظيم !..

وأمر الرئيس به فأخرجوه .. وتقدمت منه الفتاة التى كانت تقف معترضة فأعطته جرعة ماء من زجاجة .. وأصدر الرئيس الأمر بالذهاب الى مركز الرئاسة العليا .

وسار الجمع فى طابور .. وتلفت الدكتور بول حوله ، فرأى أنهم يسيرون فى أطلال مدينة هائلة .. طرقات غطتها كثبان الرمل والتراب أكوام هائلة من الحجارة .. هياكل مزعزعة منهارة لمبان ضخمة كانت تقوم هاهنا يوما .. لا شىء أخضر على الاطلاق .. آلاف الآلاف من الجماهير والعظام البشرية ملقاة كالحجارة فى كل مكان لا تثير انتباه أحد ..

وفى أثناء الطريق اقتربت منه تلك الفتاة ، وقالت له :

- اسمى لولا . ما اسمك ؟

- الفريد بول ..

- سأدعوك آلن .. انى أكره هذه القبور ، على العكس من الآخرين ..

- يسرنى أن أسمع ذلك .

وأخذ بول يتأملها .. فاذا بها فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها على الأكثر ، حمراء الشعر ، دقيقة الجسم ، رائعة الجمال .. هى نموذج الزوجة التى يريدها .. لا عقل ولا ذكاء ، بل أنوثة وعواطف طيبة ساذجة .. ولكن هذه الأسمال التى تلبسها ، والأظافر القذرة ، وهؤلاء الوحوش الذين يحيطون بها ؟..

وتحدث بول مع لولا طول الطريق .. وعرف منها أشياء كثيرة فظيعة عن هذه الجماعة التى تعيش فيها .. فهى واحدة من الجماعات التى تخلفت عن الحرب العالمية الثالثة التى أهلكت كل شىء تتكون من بضعة آلاف من الرجال والنساء .. وهم اذا رأوا « الشيطان » ينتصر هذا الانتصار

الباهرة على الانسان وعلى قوى الخير ، عبدوه · وسمونه « بليال » ، والاله « بليال » يحرم اتصال الرجل بالمرأة وتكوين أسرة ·· ذلك لأن أسلافهم الذين تعرضوا لأشعة الذرة ولم تقتلهم ، أثرت فيهم هذه الأشعة القاتلة ، فى أجهزتهم الحيوية ·· فأصبحت النساء يلدن أطفالا مشوهين ·· بقدم واحدة ، أو بثلاثة أقدام ، أو بأربعة عشر اصبعا ·· وهكذا ··· ودين « بليال » يقضى بقتل من يولد من الأطفال المشوهين وحلق شعور أمهاتهم عقابا ·· فالمرأة تخشى لذلك أن تتصل برجل ! وقد كتبوا على ظهورهم كلمة « لا » لتذكرهم دائما بذلك ! ولكن الشيطان اله الشر ، يرغمهم على اتيان الشر والاتصال ، فهم كمجتمع القـرود ·· لا أسرة ولا أزواج ·· الجميع للجميع ··

وارتجف الدكتور بول من هول ما سمع · وكانت لولا قد وقعت فى قلبه ، فبدأ يتأملها فى شغف ·· وفهمت هى بغريزتها ، وقد شـــعرت فجأة أنها أيضا تحبه ·· ولكنها لا تعـرف ما ينتظـــرها ، فهى تصرخ فجأة ، مبتعدة عنه : لا ·· لا ·· لن أنجب طفلا ! لن يقتلوه !

وفرت هاربة ، وعلى ظهرها تسطع كلمة « لا ! »

ووصلوا الى قلب المدينة ، وكان ثمة جزار ينفض يده من دم ثور بعد أن ذبحه ، وقد فتح باب فرن كبير مشتعل لانضاجه ، ولمـح بول بعض الرجال يذهبون الى بقايا بناء ضخم قريب ، كان فيما مضى دار الـكتب العامة بالمدينة ، ويعودون بأكداس من الكتب والمجلدات والمخطوطات ، يضعونها وقودا للنار !

ولم يطق الدكتور بول ، وهو الأستاذ العالم ، هذا المنظر ·· وكان احراق التراث الفكرى العظيم أبشع فى عينيه من كل ما رأى فصاح :

ــ هذا فظيع ! ألا تقرأون ؟ ·· ألا تتعلمون ؟

فقال الرئيس باسما : كلا ·· اننا لا نريدها · اننا لا نتعلم غير كلمة واحدة ، هى هذه ··

وأشار الى كلمة « لا » المنقوشة على ظهور الرجال والنساء !

وسقط من أحد الحمالين كتاب صغير ، التقطه الدكتور بول فاذا به ديوان شعر « شيلى » ·· فدسه فى جيبه !

ورأى فى ناحية النساء الخاطئات يحملن المشوهين وقد حلقت شعورهن وسأل فأخبروه أن الليلة ليلة « بليال » ·· اذ يقوم الأسقف بقتل كل هؤلاء الأطفال المشوهين ·

وفى الليل وقف يشهد الاحتفال فرأى رئيس الأساقفة على منصة عالية تتقدم الأم اليها تحمل طفلها باكية فيمسكه الأسقف من رقبته ويذبحه ذبح الشاة ، ويلقيه فى جب خلفه ·· وتسقط الأم صارخة باكية بلا جدوى والحاضرون يرددون نشيداً دمويا رهيبا ·

ونظر بول الى الأطفال يذبحون ·· والنشيد الرهيب ، وصراخ الأمهات وصيحات الأطفال ·· وسقط مغشيا عليه ، وقد أطلق صرخة هائلة ·

واستيقظ بعد وقت لا يدريه ، على الماء البارد يسكبونه على رأسه والصفعات تنهال على وجهه ·· فاذا به يرقد فى حجرة رئيس الأساقفة ·· وقد أقبل عليه هذا الأخير باسما ، وأمر له بالطعام فأحضروا له طعاما بدائيا وأدوات مائدة فضية فاخرة ، مما وجدوه بين الأطلال من آثار الحضارة الدارسة ·

وكان رئيس الأساقفة رجلا ذكيا · أخذ يتحدث مع الدكتور بول وجرهما النقاش الى هذا الدين الجديد ، وكيف أدى اليه سلوك البشر فى تاريخهم السابق على ظهوره ·

ـ ان « الشيطان » أدخل فى رأس الانسان فكرتين كان فيهما القضاء المبرم عليه ، هما : التقدم والوطنية ·· آمن البشر بالتقدم ، فصنعوا الآلات بأمر الشيطان ·· وظلت الصناعة تتقدم والزراعة تجف وتنضب واعتمد العالم زمنا على استيراد الطعام من العالم الجديد ··· ثم جاء دور هذا العالم الجديد : الصناعة تتقدم أيضا والزراعة تجف وتنضب··

وصار الناس فى عالم غريب ، يتوفر فيه الراديو والقطار والطائرة ٠٠ ولا يوجد فيه طعام ٠ وأحس مئات الملايين بالجوع الفظيع ٠٠ الجوع المركب ٠٠ الجوع الشامل ٠٠ والجوع يؤدى الى الحرب ، والحرب تؤدى الى الجوع ٠٠

كذلك آمن الناس بالوطنية ، وظن كل واحد أن وطنه هو المقدس ولا شيء سواه ٠٠ أنظر كيف أسكن الشيطان هذا الضلال فى رؤوس الساسة : ألمانيا وروسيا تتفقان على بولندا ، فاذا فنيت تحاربا وجها لوجه ٠٠ هتلر يقذف لندن بالقنابل ليدمرها ، وكذلك يفعل الانجليز فى برلين ٠ كان هتلر يعلم النهاية ٠ فلماذا أقدم عليها ؟ لأن « الشيطان » فيه أرغمه على ذلك ٠ فاذا اقتربت النهاية ردد تشرشل كلمة هائلة ، التسليم بلا قيد أو شرط ! فتكون النتيجة أن يجوع الألمان ، وتبيع الألمانية نفسها نظير قطعة من الشيكولاته !

وسأله بول : واذا كنتم تعرفون أن الشيطان شرير هكذا ، فلماذا عبدتموه ؟٠٠

ــ لأنه الأقوى ، والمنتصر !

* * *

ويخبو الضوء على الشاشة ، ويتغير المنظر ، وقد انتصف الليل وصعد القمر الى كبد السماء ٠٠ وبول يسير مع لولا فى سكون ٠ وفجأة ، يبرز من بين الأطلال رجل ضخم الجثة ، ما أن يرأى لولا حتى يفتح فمه وتتسع حدقتاه ، ويتقدم ، فيحمل لولا قسرا ، ويختفى بها خلف الأطلال ٠٠

ويقفز بول وراءهما ، وقد غلى الدم فى عروقه ٠٠ ثم يتذكر فجأة فى أى مجتمع يعيش اليوم ، فهنا لا يستطيع أن يستأثر بامرأة ٠ انما هى للأقوى وينكس رأسه فى خزى عظيم ٠٠

ويمر به رئيس الأساقفة ٠٠ فيخبره بأن أصدقاءه المستكشفين كانوا يبحثون عنه ، فطاردهم الرجال بالسهام والنبال ، فلم يجدوا بدا

من أن يعودوا الى باخـــرتهم ، بعد أن قتل واحـد منـهم ، راحـلين الى كاليفورنيـا ..

وهكذا انقطع عن بول أمله فى العودة !

* * *

ويشرق النور على الشاشـة ، ويطلع الصبح على الدكتور بول وهو راقد فى وكر بين بعض الأطلال .. وهو يستيقظ من نومه ، ويتثاءب ، ويزفر من أعماقه :

ـ يا الهى !.. يا إلهى !

وغطى وجهه بيديه ..

وتظهر أمامه « لولا » كأنما نبتت فجأة .. وهى تحمل فى يدها لفافة كبيرة ، وتصيح مقبلة عليه :

ـ آلن .. لقد بحثت عنك كثيرا .

وتجلس بجواره ..

ـ هل نمت جيدا ؟

وتخرج من اللفافة خبزا وبرتقالا ، وتقطع له قطعة من الخبز ...

ـ أنت جوعان ولا شك .. بعد ما حدث بالأمس .

وتغير لونه فجأة ، وقال فى صوت ملتهب : لا تتحدثى عن الأمس ..

فتأملته برهة .. ثم قالت له : انك تفكر كثيرا .. وهذا خطر عظيم . إننا لو فكرنا فى الأمر لوجدناه فظيعا .. فظيعا ..

وكانت ترتجف ، وقد امتلأت عينـاها بالدموع .. ونظر اليها بول فى رقة ، ثم ضمها اليه .. ورفعت عينيها اليه فى فرح وقالت :

ـ هذا ما كنت أحلم به دائما ..

ـ حقـا ؟



ـ ولـكنه لم يكن ممكن التحقيق أبدا ٠٠ حتى أتيت ، لـكم أتمنى أن لا تطول لحيتك ، حتى لا تبدو كالآخرين ٠٠ ولكنك لست مثلهم أبدا ٠٠

فضحك وقال : لست مختلفا عنهم تماما ٠

ومال يقبلها فى عينيها ووجنتيها وثغرها ٠٠ وقالت : نعم ٠٠ ولـكن أنظر ٠٠ كيف نجلس سويا ٠٠ أنت وأنا ؟ نتحـدث سـعداء ٠٠٠ ليس كالآخرين ٠٠

وفجأة تنحنى لولا على يده تقبلها ، فيسألها : ماذا ؟

فتقول له : لقد فهمت الآن معنى الحياة

ـ وأنا أيضا !٠٠

لقد اكتشف الاثنـان سويا ، من جديد ، الحب النبيل ، وما نسميه : الزواج بواحدة !٠٠

وتمضى أسابيع ، ونرى الدكتور بول ، وقـد طالت ذقنـه وأظافره ، فأصبح كالآخرين ، ونقشت على صدره وظهره كلمة « لا » ٠٠ ونرى معه رئيس الأساقفة ٠

وقد عثر الدكتور بول بين أطلال المدينة الدراسة على بقايا معمـل من معامل جامعة كاليفورنيا ، فنظفه وأصلح منه ما استطاع وبدأ يجرى بعض التجارب ٠ وعين له رئيس الأساقفة أثنين يساعدانه وقد طلبت « لولا » أن تكون بين مساعدية ،ولكن الرئيس رفض ٠٠ فان المجتمع هنا لا ينظر بعين الارتياح الى الصلة التى يبدو أنها ترتبط بينهـا وبين بول ٠٠ لذلك يقرر الرئيس ارسال « لولا » مع فرق نبش القبور لابعادها عنه ٠٠٠

وتنصرف لولا الى عملها ٠٠ ويقترح رئيس الأساقفة على بول أن ينضم الى دينهم ٠ ويعبد « بليال » مثلهم ٠٠ فيطلب بول مهلة أربعـة أسابيع ، يفكر فيها فى الأمر ٠

* * *

وتمر الأسابيع الأربعة بسرعة ، ونرى « بول » فيما يشبه حديقـة

صغيرة يجرب فيها زراعة الطماطم • ويخرج « بول » من الحديقـــة وهو يصفر ويتمتم بأبيات من شعر « شيللى » •

وسار بين أطلال المدينة ، والسكون هائل راسخ •• سكون مدينة كان يسكنها ثلاثة ملايين نسمة ، أصبحت تضم ثلاثة ملايين جثة وبضعة آلاف فقط من الأحياء •• وهذه الخرائب والأطلال والهياكل المصـــدوعة ••• وشعر « بول » بشعور غامض من ••• السعادة !•

السعادة ؟•• ألم يحطمها الانسان هنا منذ سنوات ؟•• بلى ••• ولـكنها طبيعة الانسان المتفائلة ، التى استعاض بها عن طبائع القرود : من الحقـد والخوف والنزاع الدائم •

ودخـــل « بول » بقـــايا بنـاء ضخم •• فلاحظ أنه كان « جاراجا » للمدينة •• وقصد الى بقايا سيارة « شيفروليه » ذات أربعـــة أبواب ، ملقاة أمامها جمجمتان لرجل وطفل ••• وفتح أحد أبواب السيارة الممزقة ، ونادى :

ــ لولا ••

ودخل وجلس بجوارها • وهم بضمها الى صـــدره فأبت ، وقالت فى حزن :

ــ اننا نرتكب خطيئة ••

ــ كيف ؟•

ــ انه لايريد ••• وهو قادر على الانتقام من العصاة ••• الشيطان !••

ــ ولكنك لست مثلهم ••• أما أنت فما زالت فيـــك مشـــاعر البشر وأحاسيسهم •• شكرا لله •

ــ الشيطان سينتقم منا •

ــ لن يستطيع ••

ــ ماذا ؟•• انه أستطاع فعلا •• ألم ينتصر ؟

ـ انتصر لأن الناس ساعدوه على النصر ، وما كان لهم أن يساعدوه ... انه قد يحطم كل شيء .. حتى يحطم نفسه . ثم تطفو الفضائل أخيرا على السطح .

ـ هذا مستقبل بعيد جدا ...

ـ بعيد للعالم ... ولكنه قريب بالنسبة لاثنين ... لزوجين ... لى ولك .. ومهما صنع الشيطان ، فعلينا أن نعود الى طبائعنا .. الى حقيقتنا .

ويتبادلان قبلة طويلة .

* * *

ويعود المنظر الى معمل الدكتور بول ، ورئيس الأساقفة يبحث عنه ... وقد تبين إنه هرب ، فيطلق الجنود فى أثره .

وتنتقل بنا الكاميرا أخيرا الى جبل هائل ، يتسلق سفحه لولا وبول ، وكل منهما يحمل على ظهره لفافة ضخمة .. ويقفان بعد سير طويل ، ويبسط بول خريطة كبيرة يتأملها ثم يقول :

ـ بقى أمامنا ٨ ساعات سيرا على الأقدام ثم نصل الى غايتنا ... انهم يستقبلون الهاربين هناك استقبالا حسنا .

وتبتسم «لولا» وتخرج من لفافتها برتقالا وخبزا .. ثم تقول فجأة : أنظر

وينظر الى حيث تشير ، فيلمح فى قلب الوادى شجرة ضخمة وحيدة ، قد تعرت من أوراقها ولكنها ما تزال قائمة شامخة .. وتحتها قبر وحيد

وينطلقان الى القبر يفحصانه ، ويقرآن عليه الابيات الآتية :

وليم طاليس ١٨٨٢ ـ ١٩٤٨

لماذا تتردد وترتجف ، وتتلفت الى الوراء أيها القلب ؟
لقد ذهبت الآمال ، مع كل ما ذهب .
لقد ذهبت ، وآن لك أن تذهب !

قالت لولا : يبدو أنه كان رجلا حزينا ..

وناولت بول قطعة خبز ، أخذ يقضمها فى سكون .

شئ اسمه الحب

مؤلف هذه المسرحية جان انوى ، فنان فرنسي ممتاز ،وأستاذ في « صنعة » المسرح لا يجارى ، وفي مسارح باريس يحتشد الآلاف كل موسم لمشاهدة مسرحياته مرة ومرات ٠٠ وهي تدور عادة على رسم عاطفة أو موقف أو فرد ، بريشة دقيقة اللمسات دافئة الألوان ٠

وهو في هذه المسرحية يحدثنا عن الحب ٠٠ حين يكون حقيقيا وحين يكون دنسا ٠٠٠

* * *

القصة تجرى كلها فى يوم واحد ، ومنظر واحد : صالة كبيرة فى قصر ريفى واسع ، وفى نهايتها سلم يصعد الى الدور الثانى . وعلى الجانبين ، فى الدورين ، أبواب كثيرة ٠٠

وأشخاص القصة قليلون ، أما بطلاها الحقيقيان ، فلن نراهما على المسرح أبدا ٠٠٠

يرتفع الستار وقد تأخر الصباح ، ولكن القصر مازال نائما ٠٠ ثم نسمع صوتا حادا نحيفا يصدر من احدى حجرات الدور العلوى ، يصيح : ليون ٠٠ ليون ٠٠ ليون ٠٠

وينفتح باب حجرة أخرى ، ويخرج « الجنرال » ٠٠ رجل متقدم فى السن فى « روب دى شامبر » أحمر ، ويفتح الباب الذى يصدر من خلفه الصوت ويقول :

ــ نعم ٠٠٠ ها أنذا يا حبيبى ٠٠٠ لقد تركتك منذ دقيقة واحدة ٠٠٠ كنت فى حجرة مكتبى ٠٠٠ نعم ، أجهز لاستقبال ضيوفنا ٠٠٠ نعم سأعود حالا ٠

ويغلق الباب ويرجع الى الحجرة التى تركها ، فنجد على عتبتها خادمة البيت « آدا » ، ويضمها الجنرال بين يديه ، ويضغطها على صدره وهو يغمغم : آه يا قطعة الجاتوه العذبة ٠٠ اسمعى ٠٠ حين تفرغين من ترتيب حجرة الصغير « طوطو » اسدلى الستائر ، فأصعد اليك ٠

ولكن بابا ثالثا ينفتح ، وتخرج منه فتاة جميلة ، هى « نتالى » زوجة ابن الجنرال ٠٠٠ وتنصرف الخادمة مسرعة ، ويبقى الجنرال واقفا مرتبكا ، ويحاول أن يعتذر لزوجة ابنه ، ولـكنها كما نرى من كلماتها تحتقره ، لأنها تعرف وتقول له : لمـاذا تدافع عن نفسك أمامى دائمـا ٠٠٠ اننى لست الا زوجة ابنك ، وأنت حر ٠٠

ويرتفع الصوت الحاد صائحا : ليون ! ليون ! ليون ٠٠٠ فينفجر الجنرال فى حرقة وغيظ : نعم أنا حر ! أنا حر مع هذه المجنونة التى تنادينى بهـذا الشكل الرهيب ، من فراشها ، ومنذ عشر سنوات ، مرة كل ربع ساعة !

نتـالى : ان الحب الذى حملته زوجتك لك هو الذى جعلها تجن ٠٠٠

الجنرال : أنا أيضا أحببتها يانتالى ولكن ٠٠ ان الملائكة نفسها تهرم وتشيخ ولو أراد الله أن يجعل الحب أبديا ، لجعل أسباب الرغبة فيه خالدة لاتشيب !

ويصعد الجنرال الى زوجته ، وتخرج نتالى الى الحديقة ، وتعود آدا ولكنها تلتقى فى الصالة بالصبى الشقى « طوطو » الذى يقول لهـا ، مقلدا أباه :

ـ آه ٠٠٠ يا قطعة الجاتوه العذبة !٠٠

آدا : اخرس ٠٠٠ والا قلت لأبيك !٠٠

طوطو : قولى له ٠٠ وسوف يعطينى نقودا لكى أسكت ٠٠ ياحمقاء٠٠الآن سوف تسدلين الستائر فى حجرتى فينزل اليك ، أليس كذلك ؟

وتعلم آدا أن الولد كان يتسمع عليهما فتلطمه على وجهه ، وتصفه بالخنزير الصغير ، وتنصرف مسرعة ٠٠

وينزل طوطو الى الدور الأول ، ويخرج الى الحديقة ، وهو يضرب الأثاث بقدميه كأنه يحتقر الأثاث ، أو البيت كله ٠

ويدخل من باب الحديقة ثلاثة : الكونتس أخت الجنرال ، وزوجها الكونت والفتى « فيلاريو » ·· شاب أنيق تافه ·· ونفهم انهم قادمون من السفر ، في سيارة فيلاريو ·· فقد تلقت الكونتس برقية من أخيها يدعوها للحضور بسرعة ··

وفيلاريو عشيق الكونتس ، وهو يغار عليها من زوجها الكونت ·· أما الكونت نفسه ، فانه يعرف هذه الحقيقة ، ولكنه يكتفي بالسخرية منها فحسب ، فقد وجد عزاءه في حب خياطة شابة .

وحين ينصرف ليبحث عن أهل القصر ، ينفرد فيلاريو بالكونتس ،فيعاتبها لأنه يعتقد أنها تحب زوجها ! وتنفي هي هذه التهمة ، فيقول انه ضبطها تبتسم له أمس على مائدة البوكر ، وأنها رقصت معه في السهرة عشر مرات، وهذا غير لائق ! وتقسم له أنه يسيء الظن بها ، وأنها تعرف صلة زوجها بالخياطة الشابة ، التي يقال انها جاهلة ، لاتعرف كيف تأكل الجاتوه بالشوكة ولكن فيلاريو لايقنع ويؤكد أن رقصها عشر مرات مع رجل لاتحبه ، ولو كان زوجها أمر مشين ! ·· ويسألها : لماذا لاتتركينه ؟··

ـ ابنتي ماري يا فيلاريو ··· يجب أن أعيش معها ، وأن أجعلها لاتلحظ شيئا .

ويعود الكونت وقد أحضر نتالي من الحديقة ، فيعرفها بفيلاريو قائلا : انه صديق عزيز للكونتس ·· حتى انه لايفارقها ليلا ولا نهارا !·· وتصعد نتالي لتعود بالجنرال ، الذي يرحب بالقادمين ·· ويعرفونه بفيلاريو ··

ويرتفع صوت حاد : ليون ! ليون ! ليون !

ويحاول فيلاريو أن يتظرف فيسأل الجنرال : هل عندك ببغاء ؟

فيرد عليه : كلا ·· انها زوجتي !

وتسأل الكونتس أخاها الجنرال عن موضوع البرقية التي أرسلها ··· فيقول لها انها بسبب أختهما أرديل ···

الكونتس : أرديل ··· هل هي مريضة ؟··

الجنرال : كلا ، ولـكنها معتصمة فى حجرتها ، وقد رأيت أن نعقـد مجلس العائلة ، فأرسلت أيضا الى ابنى نيكولاس من كليته فى باريس .

نتالى : (فى فزع) نيكولاس سيحضر انك لم تقل لى

الجنرال : نعم .. يجب أن يحضر لكى يبدى رأيه فى هذه الفضيحة ..

الكونتس : فضيحة ؟ أى فضيحة ..

فيلاريو : يحسن أن أنصرف ، فالمسألة عائلية

الكونت : كلا .. ان فيلاريو ليس غريبا يا جنرال ، اعتبره زوجا آخر لأختـك !!

الجنرال : اذن .. فالسيد فيلاريو يعلم أن أختنا أرديل .. حدباء ؟

الكونتس : لقد شرحت لك كيف أنها شاذة الخلقة والتكوين ..

الجنرال : نعم .. حدباء منطوية على نفسها ، فى الأربعين من عمرهـا ، لا عمل لها الا جمع الزهور من الحديقة والعزف على البيانو .. وهى الآن معتصمة فى حجرتها ترفض الخروج ولم تأكل منذ يومين ..

الـكونتس : أحقا ؟ .. لماذا ؟

الجنرال : ... لأنها تحب !

الـكونتس : (ضاحكة) ... ليون .. أنت تهزل .

الكونت : مستحيل .. انها شاذة ، حدباء .. لاتصلح لشىء ، وفى شبابها لم تكن تفكر فى الحب أو الزواج أو الرجال .. والآن ، أى رجل حرك قلبها؟

الكونتس : هل تقدم لخطبتها ؟ .. أهو رجل عاقل ..؟

الجنرال : لم يتقدم لخطبتها ، ولكنهما اتفقا على الفرار سويا !

الكونت : مستحيل .. أرديل قديسة .

الجنرال : والقديسة تريد اليوم أن تتزوج !

الكونتس : وبعد .. انك لم تحدثنا عن الرجل ..

الجنرال : انه مدرس أحضرته لكي يساعد طوطو فى دراسته ٠٠ وقال لى صديق عنه انه انسان ممتاز له عقل كبير وروح نبيلة ونفس سامية ! فلما جاء ، ماذا وجدت ؟٠٠ وجدت أنه أحدب أيضا ! ولم يهمنى الأمر بالطبع ، ولكنه اكتشف أن أرديل تهوى مثله الموسيقى ، وبدآ يقضيان الساعات أمام البيانو يعزفان ، جنبا لجنب ، أو حدبة لحدبة ٠٠ وكان صوته جميلا حقا! ومع ستة شهور ، ماذا رأيت ؟٠٠ رأيت أرديل تصبغ شفتيها بالأحمر لأول مرة فى حياتها !٠٠ وسألتها فى ذلك ، وهددتها ، فانهمرت الدموع من عينيها ٠٠٠ ثم اعترفت لى بأنها تحب الأحدب !٠٠

الكونتس : هذا فظيع ! وماذا فعلت بالرجل ؟

الجنرال : استدعيته ، ولبست كل ثيابى العسكرية ، ووضعت كل نياشينى وأوسمتى ، وأفهمته أن ما يحلم به مستحيل ٠٠ فقال لى فى بساطة شديدة أنه يحب أرديل ، وأن لاشىء على وجه الأرض يجعله يعدل عن حبها !

الكونتس : ألم تصارحه بعجزها ، وعجزه ؟

الجنرال : نعم ٠٠ ورد على بأنه رجل وأنها امرأة ٠٠ فلم أجد ما أقوله ٠٠ لقد طردته من البيت ، هذا كل ما استطعته ولكنه نزل فى فندق القرية حيث لايزال متحفزا ٠٠

الكونتس : سوف أصعد لأحدثها ٠٠

وتصعد الكونتس الى حجرة أرديل وتطرق الباب ولكن أرديل ترفض أن تفتح ، وتميل الكونتس على الباب وتوجه الكلام لأرديل :

ـ أرديل ٠٠ أختى العزيزة ٠٠ أتسمعى ؟ أنا ليليان ٠٠ لقد جئنا جميعا من أجلك ٠٠ أنا والكونت ٠٠

الكونت : (مقاطعا) قولى لها ٠٠ وفيلاريو أيضا !

الكونتس : (وهى تهبط السلم) تقول انها اتخذت قرارها النهائى ٠٠ وأننا يجب أن نتركها لتموت ٠٠

الجنرال : تموت ؟ ٠٠ هل يموت الناس من أجل الحب ؟٠٠

الكونت : أوه ٠٠ العفو !

وتدخل « آدا » الخادمة ، تعلن أن الغداء قد أعد ، فيدخلون الى حجرة الطعام ·· وتبقى نتالى لحظة ، يدخل فيها من باب الحديقة ، نيكولاس ، ابن الجنرال الآتى من كليته ··

نتالى : أجئت حقا ؟

نيكولاس : كما ترين ··

نتالى : لقد صرت رجلا ··

نيكولاس : كان لابد من ذلك ··

وتمر لحظة صمت ، غير عادية ، فهما يحبان بعضهما ، ولكن نتالى تزوجت أخاه الأكبر ، الغائب الآن فى الهند الصينية ويسألها فجأة :

ـ نتالى ، لماذا تزوجت أخى ؟ ··

فتجذبه من يده الى حجرة الطعام مع الآخرين ، وينطفىء النور فى المسرح

* * *

ويضىء المسرح ، وقد فرغ القوم من الطعام ، وخرج الى الصالة « طوطو » ومارى ابنة الكونتس ، طفلة فى العاشرة أيضا ··

مارى : لماذا طلبوا منا أن نترك المائدة ؟

طوطو : لأنهم يريدون أن يتحدثوا ··

مارى : فى أى شىء يتحدثون ؟ ···

طوطو : فى قذارات ·· انهم لايخرجون الصغار الا ليقولوا القذارات ··

وتقترح عليه مارى أن يلعبا ، هى زوجة وهو زوجها ، وأن يتشاجرا كما يفعل الآباء والأمهات ··· ويخرجان الى الحديقة ·

ويعود الجميع الى الصالة بعد أن فرغوا من الطعام ، وهم يتحدثون عن مشكلة أرديل ·· ويقترح الجنرال أن يكسروا باب الحجرة ويخرجوها ويطعموها بالقوة ، ولكن الكونت يقول ان القوة فى هذه المسائل الحساسة لاتنفع ·· وتصعد الكونتس تخاطبها من جديد ، ولكنها تنزل غاضبة وتقول:

ـ لقد أهانتنى ··

الجنرال : ماذا قالت لك ؟ ·· لابد أن نعرف ·

الكونتس : لماذا تريد أن تعرف ؟ لقد قالت لى شيئا يخصنى وحدى ٠٠ هل سألتك يوما لماذا تقبل الخادمة آدا ٠٠

الجنرال : (مصعوقا) ليليان ! ماذا تقولين ؟ نيكولاس٠٠اخرج ، ولاتسمع كلامها ٠٠٠ ولكن ٠٠٠ ابق ، لقد سمعت وانتهى الأمر ٠٠٠ اسمعى ، اننى حر فى حياتى الخاصة ، أفعل ما أشاء ٠٠٠

الكونتس : وأنا أيضا حرة ٠٠ افعل ما أشاء ٠٠

الكونت : عجبا ! ٠٠ ولكن هذه بالضبط قضية أرديل ، لماذا لاتتركونها حرة تفعل ماتشاء ؟ لماذا تنكرون عليها الحرية التى تطلبونها لأنفسكم ٠٠

الكونتس : كفى سخفا ياجاستون ٠٠ لابد من المحافظة على المظاهر ، وتجنب الفضائح العلنية ٠٠ ثم ماذا تعرف أرديل عن الحب ؟

الكونت : الحب الذى أعرفه أنا ، وأنت ، والجنرال ، وفيلاريو ٠٠ هى لاتعرف عنه شيئا بكل تأكيد ٠٠ أما الحب كما تفهمه هى وصاحبها ، فهذا شىء آخر ٠٠

الكونتس : لماذا لاتصعد وتجرب فلسفتك هذه معها ؟

ويصعد الكونت ، ويميل على باب الحجرة :

ـ أرديل ٠٠ أنا جاستون ٠٠ انك تعيسة يا أرديل ، وأنا لست أكثر سعادة منك ، فما رأيك ؟ ألا تسمحين لى بالدخول ؟ (يسمع قليلا ويبتسم) شكرا يا أرديل ٠٠ أنا أيضاأحبك كثيرا ٠٠ انك لست كهلة بعد ٠٠ الحياة أمامك طويلة حافلة (يسمع) نعم نعم ، لقد خلقت الحياة من ذكر وأنثى ٠٠ ولكن ٠٠٠

الجنرال : حدثها عن واجبها ٠٠ قل لها اننى ضحيت بسعادتى فى سبيل الواجب ٠

الكونت : أرديل ، يريدون منى أن أحدثك عن الواجب ٠٠ نعم ٠٠٠ انظرى الينا جميعا ، قوم حسبوا أنهم أحرار وأن الحياة ليست الا موضوعا للفضائح ٠٠

الكونتس : جاستون ٠٠ هذا غير لائق ٠٠

الكونت : تماما يا أرديل ٠٠ فاذا كنا لم نتمزق تماما فذلك لأن فى أعماق

فوضانا ترقد فكرة ضئيلة عن الواجب ، انظرى ٠٠ الجنرال لم يبق بجوار زوجته عشر سنوات وهو كاره الا بسبب الواجب ٠٠ أنا وليليان وفيلاريو ، لم نفترق بعد بسبب الواجب ٠٠

الكونتس : جاستون ٠٠ اننا نناقش قضية أرديل لا قضية فيلاريو ٠٠

الكونت : (وهو ينزل) بل انها قضية الحب ! ان الحب يسكن الآن قويا قاهرا ، فى كيان أرديل ٠٠ ونحن الذين عشنا نخدع الحب ونهينه منــذ سنوات ٠٠ هانحن نقف أمامه ، لأول مرة ، وجها لوجه ! أى لقاء !!

ويكون الـكونت قد نزل الى الصالة ، فيسأل : والآن ٠٠ من عليه الدور ليفاوض أرديل ؟

فيتقدم الفتى نيكولاس قائلا : أنا ٠٠

ويصعد الى باب حجرتها ويقول بصوت متحمس مرتفع : عمتى أرديل ، اننى أريدك أن تهزئى منهم ومن الفضيحة التى يتحدثون عنها ٠٠ يجب أن تستمتعى بالحب ياعمتى ٠٠ لا تسمعى لهم ٠٠ من حقك أن تكونى سعيدة ٠٠

نتالى : نيكولاس ، هل جننت ؟ انى أمنعك من الكلام ؟

نيكولاس : لماذا تريدين منعى ؟ ٠٠ كى لا أقول لهم اننى أحببتك وانك أحببتنى وأنهم أرغمونا على أن نفقد بعضنا الى الأبد ، لأننى طالب ،وزوجوك أخى !٠٠

الجنرال : (واضعا يديه على رأسه) آه ٠٠ لم يكن ينقصنى الا هذا ٠

نيكولاس : عمتى أرديل ٠٠ يجب أن نحب ، رغم أنوفهم ، يجب أن تحبى بكل قوتك ، حتى لاتصبحى متمزقة مثلهم ٠٠

فيصعد الجنرال غاضبا ويجذب ابنه بعنف ويصيح فيه : كفى ٠٠٠ انى أمنعك ولست أعرف ما الذى يمنعنى من أن أصفعك ٠٠

فيجيب : أنا أعرف يا أبى ، انه الخجل ٠٠!

ويرتجف الأب غضبا ٠٠ وخجلا ، وينبعث الصوت الحاد صائحا : ليون ، ليون ٠٠ ليون ٠٠ فيجرى الجنرال الى حجرة زوجته ويدق التليفون ، فيسرع اليه الكونت ، ليجد فندق القرية يعلنه بأن عشيقته الخياطــــة قد حاولت الانتحار ، بتناول مشروب سام ، لأنه لم يذهب اليها ، ويسرع الكونت خارجا

الى الفندق مع فيلاريو ، وتأوى الكونتس الى حجرتها تستريح من هـذه الضجة ‥ وتخلو الصالة الا من نتالى ونيكولاس ‥ ويهمس لها : حين ينام الجميع ، سأنتظرك تحت السلم ، كما كنا نصنع ‥

نتالى : كلا ‥

نيكولاس : بل ستنزلين ‥ ذلك فى عينيك ‥

وينطفىء المسرح ‥ ويعود اليه النور ، خافتا هذه المرة ، فالليل قد تأخر، وأهل القصر نيام والمطر يهطل فى الخارج بشدة ،ونرى نيكولاس ينزل على السلم متلصصا ، يقبع خلفه فى ترقب ‥ ويخرج طوطو من حجرته متلصصا ، يسرق السجائر ويعود ، وينفتح الباب الخارجى ، ويدخل الكونت ، عائدا من الفندق غارقا فى ماء المطر ‥ ويصعد السلم فى هدوء ، قاصدا حجرة المكتب لينام على أريكة فيها وحين يمر بباب الحجرة التى تنام فيها الكونتس ، ينفتح الباب وتظهر الكونتس فى ثياب النوم ، وتسأله عن صاحبته ، ثم تقول له :

ـ أريد أن أحدثك على انفراد ‥ ادخل ‥

الكونت : كلا ، فقد يرانا فيلاريو ‥

الكونتس : اذن ‥ غداً ، نذهب الى مقهى منعزل ‥

الكونت : أوه ‥ سيرانا الناس ويتحدثون عنا

الكونتس : أتقابلنى على المحطة ؟ سوف أضع غلالة على وجهى

الكونت : سيثير منظرنا الشك

الكونتس : ولكنك زوجى !

الكونت : ‥ وهذه هى المأساة ‥

وينصرف الكونت مطرقا ‥

وتظهر نتالى على رأس السلم ، وتنزل متلصصة ، ويتلقاها نيكولاس فى حرارة ، ولكنها ترتجف : لاترفع صوتك ، لقد سكت المطر وأصبح الصوت مسموعا ، اننى أسمع دقات قلبك ، انى خائفة ‥ لو رآنا أحد !

ويلمحان شبحا صغيرا يتحرك فى الحديقة ‥ ويقترب الشبح من باب الصالة ، ويفتحه ‥ ويسرع نيكولاس ونتالى الى الاختفاء خلف السلم ‥‥

ويتردد الشبح قليلا ·· وتهمس نتالى فى ذعر : انه هو ·· الأحدب !!

ويدخل الأحدب ، ويجتاز الصالة ، ثم يصعد السلم وهو يتلفت حذرا ، حتى يبلغ باب حجرة أرديل ، فينفتح ، ويدخل الأحدب ويغلق خلفه الباب·

نتالى : لقد أشارت له من الحديقة ، انها الآن بين ذراعيه ·· فى أحضانه

ويرتفع صياح حاد : ليون ·· ليون ·· ليون ··

وينفتح باب حجرة الجنرال ـ الملاصقة لحجرة أرديل ـ وتخرج منه زوجته فى شكل رهيب ، تخرج متعثرة ، وهى تصيح فى جنون : انه هنا ··· انه معها ، لقد سمعت صوتهما ، وأحسست بحركاتهما ···

ويصحو أهل البيت جميعا ، الكونت والكونتس وفيلاريو والجنرال ـ خارجا من حجرة الخادمة ـ ويسرعون جميعا الى الزوجة المجنونة يدفعونها الى حجرتها ويقولون أنها أوهام الجنون ···

ولكن يدوى فجأة فى جنبات القصر صوت طلقين نارين، يتتابعان فى سرعة·· ويهجم الجميع هجمة واحدة على الباب يكسرونه ، ويدخلون ، ثم يرتدون الى الخلف فجأة ·· فعلى أرض الحجرة رأوا جثتين هامدتين ·· وحدقوا فى الدم السائل يتبينون فيه شيئا غريبا ،شيئا طالما تحدثوا عنه ، وتشدقوا به دون أن يعرفوه ، شيئا اسمه الحب !

ويسرع الجنرال الى الخارج بحثا عن طبيب ، وتقول نتالى لصاحبها : وداعا ثم تغيب فى حجرتها ، ويهرب نيكولاس من القصر لايلوى على شئ ··

والقصة قد انتهت ، ولكن المؤلف يختمها بسخرية صغيرة ، كأنها بصقة على أشخاصها ·· فقد خرج طوطو ومارى الصغيران على صوت الضجة وقد أصبحت الصالة خالية ·· وقد لبس طوطو ثياب أبيه العسكرية ، والقبعة العالية ، وألصق شاربا مضحكا ، ولبست مارى قبعة أمها وثيابها الجرارة ومناديلها الملونة ··

انهمـــا يلعبان ···

ويقف طوطو أمام الطفلة ، يقلد أبطال الروايات الغرامية الســـخيفة ، ويقول لهـــا :

ـ حبيبتاه !!

الحقيقة

رجل من الريف ، ذهب مع صاحب له الى روما لقضاء عمل ، وطول الطريق الى روما وهما يحلمان بمغامرة فى المدينة الكبيرة ، حيث الليالى الحمراء ، والأجساد البضة المعطرة ٠٠٠

وفى الوقت الذى كان الصديقان فيه يبحثان عن المغامرة فى ملهى رخيص كانت هى تسند رأسها على مكنة الخياطة التى تكسب منها رزقها ، والتى ظلت تعمل عليها فى النور الخابى حتى هذه الساعة من الليل ٠٠ وتنهض لترى طفلها النائم الذى ارتفعت درجة حرارته ، ثم تتأمل صورة زوجها الذى مات فى الحرب ، ثم تعيد قراءة انذار صاحب البيت ببيع عفش بيتها ان لم تسدد الايجار ٠٠ ثم تفكر فى جارتها الحسناء التى قالت لها : انها تصادق الرجال ، وتكسب من ذلك ليس ايجار الشقة فقط ، بل والفراء الذى تلبسه ، والعطر الذى تتعطر به ، والسيارة التى تمر عليها كل ليلة ٠٠٠

وفى يأس مرير تقرر أمرا ، وتلبس ثيابها ، وتحمل طفلها الصغير الى الجيران ليبقى عندهم حتى تعود ثم تمضى تحت المطر المنهمر الى الحانة التى حدثتها عنها جارتها ، كمكان لاصطياد الرجال ٠٠ وتجلس الى احدى الموائد جزعة تائهة ، وتفتح عينيها فزعا على مخلوقات غريبة ٠٠ تتأمل البحارة الأمريكان يملأون المكان ، ويرقصون ويغنون ويهرجون ، وعندما يخطف أحدهم كأس أحد الزبائن يصيح فيه الزبون قائلا : وميثاق الأطلنطى ؟!

وكان هذا الزبون هو الرجل الريفى مع صاحبه ، يجلسان بدورهمـا مرتبكين فى هذا الجو الغريب ، ويقع بصرهما عليها ، وعندما تفر الى الخارج هاربة يتبعانها ، ويتقدم اليها الرجل الريفى ، ويساومها ، وتقبل ، ولايجدان مكانا يقضيان فيه الليل ، فيتسللان الى شقتها ، ويصعد « توتو » معها مزهوا ببراعته ، بينما يقف صاحبه فى الشارع منتظرا دوره ٠

وعندما يدخل البيت يدهش ، اذ لاتبدو عليه هيئة بيوت الغانيات ، بل بيت أسرة فقيرة مجاهدة : نور ضعيف ومائدة عارية ومكنة خياطة وثيـاب لم تتم ! وتمضى الدقائق بينهما باردة سخيفة ٠٠ هو يتقدم ولكنه يرتبك ٠٠ وهى تتراجع وتضطرب وتشمئز ، ويبدأ فى الثورة عليها عندما يطرق الباب فيضطر الى الاختفاء فى الشرفة ، تحت المطر ، ويدخل الجار يحمل طفلهـــا الذى ارتفعت درجة حرارته ، وعندما ينصرف الجار ، ويخرج « توتو » من مخبئه يتبين أن حالة الطفل خطيرة ، وتضرع اليه أن يذهب فيستدعى الطبيب القريب ، ويأخذ مظلة وينزل ، لاعنا تلك الليلة ، والمشاكل التى يقع فيها ، وعندما يعود بالطبيب ، يظهر أن الطفل مصاب بالدفتريا ، وأنه سيموت ان لم يسعف بحقنة عاجلة ، والطبيب يحسبهما زوجين ويعاملهما على هذا الأساس وهما يخجلان من مصارحته بالحقيقة ، فهو يأمر « الـــزوج » بأن يسرع الى الصيدلية ليحضر الحقن والدواء ، وينزل « توتو » مرة أخرى فى المطـــــر ، وصاحبه الجالس عند الباب ــ ينتظر دوره ــ ينظر ذاهلا لايفهم ماذا يجرى هنالك ٠

ويتأخر توتو ، وتجتاحها نوبة قلق فظيعة : ماذا لو لم يعد ؟ وأى التزام يجعله يعود بالدواء ؟ ولماذا يدفع ثمنه من جيبه ؟ وماذا تقول للطبيب ؟ ٠٠ وتكاد تجن ، ولكنه يعود ! وهى تنظر اليه هذه المرة نظرة عرفان عميقة ٠٠ وربما حب ! والطبيب يعاملهما كزوجين شريفين ، فهو يأمرهـــا أن تخلع « لزوجها » حذاءه ومعطفه المبللين حتى لايمرض ، وعندما تركع على الأرض أمامه لتخلع له حذاءه ، وترفع اليه نظرتها البريئة الوديعة الشاكرة ، يشعر بمتعة أخرى عميقة ، مريحة ، تختلف تماما عن المتعة التى كان يبحث عنها منذ قليل فى مطاردة الغانيات ، متعة التعرف الى امرأة صديقة ، حانيـــة ، لا تاجرة !

ويطلع الصبح ، وقد عرف من أمرها الكثير ، وينصرف الطبيب بعد أن زال الخطر على الطفل ، وينصحها وهو منصرف أن تذهب به الى الريف قليلا ، وأن تعنى بتغذيته ، وينفردان مرة أخرى وقد تغير الموقف تماما ٠٠ هى ترى فيه الانسان النبيل الذى أنقذ طفلها ، وليس الذئب التى كان يساومها أول

الليل ، بدافع الوحدة ، وهو يرى فيها أما باسلة ،وليست الغانية التي رضيت أن تبيع نفسها أول الليل ، بدافع الفقر ٠٠ والوحدة أيضا !

ويضع لها ــ دون أن تلحظ ــ كل مامعه من نقود ، ويقول لها وهو ينصرف مع انصراف الليل : عندى مزرعة جميلة ، وأنت محتاجة الى الريف ٠٠هناك الهواء النظيف والغذاء والطبيعة ٠٠ المزرعة فيها رجل وحيد ، سوف يفرح جدا ، لو ملأت عليه حياته !٠٠

لقد عرف أنها ليست « احداهن » !

وعرفنا نحن أنها ان لم تصبح « احداهن » ، فهى «مثلهن» ، فما يدفعهن الى ذلك جميعا سوى : الفقر !

ولايقيم المخرج « زفة عروسة » كما تصنع الأفلام المصرية ، لنفهم أنهما قد تزوجا ، ولكننا نعرف ذلك فقط من النظرة التى يتبادلانها قبل أن يســدل الســـتار !

رأيت هذا الفيلم الذى مثله « توتو » و « ألدو فابريزى » وقد ألفه وأخرجه « ألدو فابريزى » أيضا ٠

وقد نسيت أن أقول أن الفيلم الذى عرض لنا هذه الدراما ، كان فيلما كوميديا ، لاتملك نفسك من الضحك طوال عرضه ٠٠

* * *

وفى العام الماضى ، أذكر أنى رأيت فيلما لنفس البطلـــين ، يؤدى نفس الفكرة اسمه « اللص والعسكرى » : توتو لص لاتعرف عنه زوجته وأولاده الا أنه يختفى أياما أو أسابيع ثم يعود بالمال القليل الذى يواصلون به الحياة ، ويقبض على توتو ولكنه يهرب من العسكرى الذى يتولى حراسته ، وهو ألدو فابريزى ، ويوقف فابريزى عن العمل ، ويعطى مهلة ثلاثة شهور يقبض فيها على اللص الذى فر منه أو يطرد من العمل ويفقد رزقه ، وفى هذه الشـــهور الثلاثة تتعارف أسرة اللص وأسرة العسكرى : أسرتان من الأسر الفقــيرة

المتشابهة فى كل شىء .. ويحب ابن اللص ابنة العسكرى ويصمم على الزواج منها ، ويوافق الأب العسكرى وهو لايعرف أن رب الأسرة هو نفس الرجل الذى يبحث عنه . بينما الأب الآخر ـ اللص ـ هارب لايعرف القصة .. وفجأة ، وفى اليوم المحدد للخطوبة ، يظهر اللص فى بيته ، ويلتقى وجها لوجه بالعسكرى ، ويتبين الموقف على حقيقته .

ويعجز كل من اللص والعسكرى عن فصم الصلة التى قامت بين الأسرتين ويكتشفان سويا أن حياتهما واحدة ، ومشاكلهما واحدة ، وأن الظروف وحدها هى التى جعلت هذا عسكريا وسلبت الآخر من الحظ فجعلته لصا .. وبينما يبدأ الفيلم والعسكرى يطارد اللص ، ينتهى والعسكرى يرفض أن يقبض على اللص ، واللص يجر العسكرى جرا الى السجن ، مسلما نفسه ، ليحفظ له عمله ، والعسكرى يتعهد له برعاية أسرته وأولاده ، حتى يتم مدة عقوبته .

وكان هذا الفيلم ـ أيضا ـ كوميديا !

والفكرة الواحدة فى الفيلمين هى :

اكتشاف الخير الكامن فى الانسان ، وأن الانسان فى حقيقته مخلوق شريف

اكتشاف العلاقات القوية التى تربط بين الناس ، والتى تستتر وراء الخلافات الظاهرة التى صنعتها الظروف الاجتماعية الشاذة ، أو اكتشاف أسباب الحب بين الناس أبناء الظروف الواحدة ، من بين العوامل الطارئة التى تجعلهم يتبادلون الكراهية !

لص .. وعسكرى .. كل منهما يرى فى الآخر عدوا خطيرا يهدد حياته ، ولكن القصة تكشف لهما عن المصالح الواحدة والمشاكل المشتركة التى تربط بينهما ، وتجعلهما أسرة انسانية واحدة ، فهما فى أول الفيلم عدوان وفى آخره صديقان ، وصهران ..

امرأة .. ورجل ، هى تريد أن تبيع جسدها كارهة لكى تعيش ، ولا ترى فى الرجل الا أنه ذئب .. وهو يريد أن يشترى مزدريا لها ، لايرى فيها الا غانية ، ثم تكشف لهما القصة عن الظروف التى دفعت كلا منهما الى هذا الطريق ، والتى جعلتهما ضحايا ..

الخطأ فى الحالتين كامن فى ظروف المجتمع وليس فى طبيعة الأفراد !

وفى هذا المغزى نجد احدى القمم العالية التى تقف عليها السينماالايطالية حيث لانجد انتاجا سينمائيا آخر يدانيها فى روعة فنه ونبل غايته ! حيث نجد الفيلم الذى يأخذ بتلابيب انتباهك ومشاعرك منذ البداية الى النهاية ، ببساطة الواقع وصدق النظرة ٠٠ لا بالأساليب التى يلجأ اليها الفيـــلم الأمريكى مثلا : المغامرة العنيفة ، واندفاع الخيل وطلقات الرصــــاص ، والـكلمات المدوية !

* * *

وقد عاشت الفاشية فى ايطاليا عشرين سنة استطاعت فيها أن تخنق الفن فى هذا الشعب الذى يعتبر فنانا بالسليقة واستطاع هذا النظام الاستبدادى أن يقيم الجدران وينشىء الصروح ولكنه عجز عن اظهار عبقرية واحدة ، فى أرض خصبة لنمو العباقرة ! ذلك أنه نظام يجد مادته فى الصخر ولايجدهافى البشر لأنه يعامل البشر على أنهم قوالب من الطوب !

وهكذا مضت العشرون عاما دون أن يسمع العالم من ايطاليا فنا من الفنون سواء الكتابة أو التمثيل ، ففى سنة ١٩٤٦ ــ بعد قتل موسولينى وتعليقه من قدميه بقليل ــ لم تشترك ايطاليا بأى فيلم فى مهرجان كان ٠٠ وفى يناير ١٩٤٧ كتب الناقد « برنارد وول » فى مجلة « هوريزن » يقول : فى أواخر عهد الفاشية أقفر الانتاج ، ولم يعد هناك الا دانزيو وغيره من الكتاب الذين لم يعد يقرأ لهم أحد من الناس ،لأنهم لايكتبون الاالعبارات الخطابيةوالفلسفة الكاذبة والتمجيد الشخصى للدوتشى وأعوانه ٠٠ وقد ساعد على هذا الاختناق عزلة ايطاليا عن سائر العالم وصعوبة الحصول على الكتب الأجنبية ومعرفة ما يقال عنها فى الخارج ، ومع تحرير كل مدينة فى ايطاليا من ربقة الفاشية والنازية ، كان يظهر النشاط الأدبى والسياسى ، اذ أصبح من المستطاع نشر آراء كانت مختزنة منذ عشرين سنة ، واخراجها الى عالم الوجود !

وسرعان ماانفجرت السينما الايطالية كالرعد ، واكتسحت أفلامها مهرجان كان وجميع المهرجانات ، واحتكرت الجوائز الأولى فى العالم منذ سنة ١٩٤٨

الى الآن ، وظهرت تلك السلسلة المجيدة من الأفلام : روما مدينة مفتوحة ، مرارة الأرز ، طريق الأمل ، نساء بدون أسماء ، معجزة ميلانو ، ســـارق الدراجات ، روما الساعة ١١ ٠٠ كل فيلم منها قبضة مليئة من الواقع المنتفض حياة ٠٠ بترابه وعذابه وبسالته وابتساماته ٠٠ بانسانيته كلها !!

وأصبح دى سيكا ودى سانتس وروسلينى وزامبا ، تذكر أسماؤهم على أنهم سادة السينما ! وأصبحت أسماء سيلفانا مانجانو وسيلفانا بامبانينى وجينا لولو بريجيدا ألمع من أسماء لانا تيرنر وريتا هايوارث ! وأصبح الشاب فى مصر اذا بهرته امرأة قال لها : ياسيلفانا !!

وكانت أرقام النجاح أعظم وأبهر ، فبينما أغلقت فى أمريكا فى الثـــلاث سنوات الأخيرة خمسة آلاف دار للسينما ارتفع عدد دور السينما فى ايطاليا من ٦٥٠٠ الى ٩٧٧٨ ، وقفز ايراد شباك التذاكر فيها من ٨ر٨٠٠ر٠٠٠ دولار الى ٤٨ مليون فى السنة ! وعرضت أفلامها فى ٨٦ دولة بدلا من ٣٦ ، وحصل فيلم « مرارة الأرز » فى الولايات المتحدة وحدها على ربح لم يحصل عليه أى فيلم آخر : ٨ مليون دولار !!

وقال النقاد : ان السينما الايطالية هى ثانى معجزة تقدمها ايطاليا الى العالم بعد برج بيزا !!

لمـــاذا ؟٠٠

لأنهم ــ ببساطة ــ لم يبددوا الطاقة الفنية الهائلة الـــكامنة عندهم فى الهواء ، ولا فى تزجية الفراغ ٠٠ بل استخدموها استخداما بارعا الى أقصى الحدود فى وضع مشاكل مجتمعهم تحت عدسة البحث ، وتحت بصر الضمائر الحية فى كل مكان ٠٠ لم يستخدموا هذه الطاقة الفنية فى نسج الأحـــلام وتسلية الأطفال الـــكبار ، بل فى وضع شعلة القلق الشريف فى كل قلب وكل رأس ٠٠ فأصبحت أفلامهم « وثائق » فنية باهرة لمشاكل مجتمعهـــم والمجتمعات المشابهة ، لم يتجنبوا فيها الاشارة الى الهدف الأســـاسى ، ولم يقفوا ازاءها وقفة حياد بلهاء لاتميز بين الخير والشر ٠٠ كل هذا فى اطار فنى لا نظير له ٠٠ فلا يقف أحد فى نهاية الفيلم يلقى خطبة عن مفاسد المجتمع ،

ولكنه يترك المتفرج يستخلص بنفسه العبرة ، ويخرج من الفيلم وكأنه مر بتجربة حقيقية تعلم منها درسا !!

كان شعار السينما الايطالية كلمة ناقدهم «سيزار زفاتيتى» : ان استخدام تلك الهبة الكبرى وهى الفيلم فى غير خدمة المجتمع ، كاستخدام الصابون فى عمل الفقاقيع ، لا فى ازالة القاذورات !!

* * *

وكان طبيعيا أن يهتز الانتاج السينمائى فى العالم كله من هذه القفزة التى حققها الفيلم الايطالى ٠٠ وكانت أكثر البلاد تأثرا هى : أمريكا ٠

قال المحرر الفنى لمجلة « تايم » ـ ولو أن التشبيـــه ركيك ـ أن السينما الايطالية قد ضربت رأس العالم بمطارق ثقيلة من الانسانية !

ولكن هذا الاعتراف لم يكن أسلوب كل الدوائر الفنية فى أمريكا ٠٠ فقد عمد أغلبها الى الهجوم ٠٠

قالوا يعللون نجاح الفيلم الايطالى فى أمريكا نفسها : ان السر يكمن فى الجمال غير العادى الذى تتميز به الممثلات الايطاليات ! ورد الايطاليون على ذلك بأن سر جمال البطلات هو ابراز الجمال الطبيعى ، جمال الفطرة لا جمال المساحيق والألوان ٠

وقالوا مرة أخرى : أن سبب نجاحه هو اسرافه فى اظهار النســـــاء العاريات والسيقان والنهود ، وهذا أيضا غير صحيح ٠٠ ان أثر السيقـــان العارية المغروزة فى طين الحقول ، كما فى فيلم « مرارة الأرز » الايطالى مثلا ، يختلف عن أثر السيقان العارية الممدة على الفراش الوثير كما فى فيـــلم « نياجرا » الأمريكى ٠٠ هذا فضلا عن مغزى القصة العام وأثره ٠٠ ففى « مرارة الأرز » سيقان عارية أكثر مما فى فيلم مارلين مونرو « كيف تتزوجين مليونيرا » ، ولكن الفيلم الأول يحدثنا عن فتيات مكافحات يكسبن رزقهن الشريف ويجاهدن من أجل حياة أفضل للجميع ، والثانى يقدم للفتاة وصفة وحيدة للسعادة هى : أن تصطاد مليونيرا ٠٠ تصطاده بساقيها طبعا !!

على أن النجاح السريع ، له دائما مخاطره .. وقد بدأت السينما الايطالية تتعرض للمخاطر !

فالحكومات الايطالية بعد أن أفاقت من نوبة الحرية التى جرفتها فى أعقاب الحرب ، بدأت تضيق على هذه الأفلام الخناق .. وترى فى الواقعية الجديدة دعاية سيئة لايطاليا ! لأن الدول فى رأيها لايجب أن تكون صريحة مع نفسها ومع العالم ، ولايجب أن تعترف بأن عندها مشكلة بطالة ، أو مشكلة دعارة ، أو أى مشكلة أخرى من المشاكل !! ولأن السينما فى عقدتها ليست وسيلة لخدمة المجتمع بل لتسليته عن مشاكله ، فيجب أن تزعم للشعب الايطـــالى أنه شعب سعيد ، كل شىء متوفر لديه فى علب محفوظة ، حتى الســـعادة نفسها ، ليس عليه الا أن يدير المفتاح ليلتهمها !

ومن ناحية أخرى ، فان الأرباح الطائلة التى تدفقت على أبطال السينمـا والمخرجين والمنتجين أغرت النصابين والتافهين بالدخول فى ساحتها والالتقاط من مائدتها .. فأصبحنا نرى أفلاما مصرية ناطقة باللغة الايطالية !!

ثم هناك الممثلون والفنانون أنفسهم ، انهم تحت دوار الأرباح الهـــائلة نسوا بدايتهم الأولى ، وأصبحوا يطمعون أولا فى أرباح أكثر عن طـــريق الانتاج الأسهل ، والبحث عن الجمهور الأكبر بأى وسيلة ، ومنهم من سار وراء بريق الذهب حتى عبر الأطلنطى ، واستقر فى هوليوود !

على أننا نعتقد أن هذا الفن السينمائى الرفيع فى ايطاليا سوف يقوى على البقاء فى وجه هذه الأخطار .. لأنه فن أصيل ، وسوف يظل لفترة طويلة مثلا يحتذى للآخرين ..

وحسب الفيلم الايطالى أنه يقدم لنا فى اطار فنى رائع ذلك الشىء النادر الثمـــين ..

الشىء الذى لاغنى عنه ولا مفر منه ..

الشىء الذى يبقى لامعا مهما وقع فى الوحل ، أصيلا ساطعا مهما أصابه التزييف .

ذلك الشىء هو : الحقيقـــة !!

كتب للجميع

كتب قيمة بقروش زهيدة

تصدر عن دار التحرير للطبع والنشر

مدير المجلة : السيد ابراهيم

رئيس التحرير : دكتور فائق الجوهري

طريقة الدفع :

مصر والسودان : نقدا او بموجب اذونات او حوالات بريد اوشيكات

سوريا .... بالطائرات ١٢٠ قرشا سوريا

لبنان .... « ١٢٠ قرشا لبنانيا

العراق .... « ١٢٠ فلسا

المملكة الاردنية الهاشمية .... « ١٢٠ فلسا

المملكة العربية السعودية .... « ٢٥ قرشا سعوديا

الاشتراكات :

القطر المصري والسودان عن سنة ، ١٢ عددا ، ٩٠٠ قرشا

سوريا ولبنان بالطائرات ١١٠٠ قرش سوري او لبناني

الاردن والعراق بالطائرات .... ١٢٠٠ فلس

ثمن العدد :

مصر والسودان .... ١٠٠ مليما

خارج القطر المصري : حوالة مصرفية على احد بنوك القاهرة

المكاتبات بعنوان ٥ شارع نجيب الريحاني ت ٧٩٦٤٧



دار الجمهورية للطباعة